

# استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن ٢١

كما تقدمها  
دعوة الإحياء الإسلامي

جمال البنا

## المحتويات

### القسم الأول

#### استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن ٢١

١ - مدخل

٢ - تحديات العصر تحاصر الإسلام

٣ - المحاور الرئيسية في الاستراتيجية

٤ - قضية المراجع

### القسم الثاني

#### دعوة الإحياء الإسلامي

١ - عن دعوة الإحياء الإسلامي بصفة عامة

٢ - ميثاق دعوة الإحياء الإسلامي "إيماننا"

٣ - فكر وفقه دعوة الإحياء الإسلامي

٤ - نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

٥ - الركائز الثلاث لدعوة الإحياء الإسلامي القرآن - الإنسان - الزمان

٦ - موقف دعوة الإحياء من بعض القضايا

٧ - مكتبة ومراجع دعوة الإحياء الإسلامي

إلى ...

• الذين يطلبون الحقيقة ولا يخشون المجابهة ويرفضون التجاهل والاستخفاء.

• والذين يؤمنون أن الإسلام رسالة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وجعل الإنسان خليفة في الأرض.

• والذين يؤرقهم التساؤل:

لماذا .....

كيف .....

وإلى متى .....

نقول لكم: لا تيأسوا

لقد رسمنا الطريق،

وبدأنا المسيرة

وندعوكم للمشاركة

**القسم الأول**  
**استراتيجية الدعوة الإسلامية**  
**في القرن الواحد والعشرين**

## مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

يتمزق الكاتب المسلم أسي عندما يفكر فيما آلت إليه شئون المسلمين، والدرك الأسفل الذي انتهت إليه أوضاعهم وبلادهم، وعندما سلم الملك التعس أبو عبد الله مفاتيح غرناطة سنة ١٤٩٢ إلى فرديناند، وإيزابيلا، فإن ٨٠٠ سنة من الوجود الإسلامي انتهى كأن لم يكن بالأمس، وتداعت الدول الأوروبية دولة دولة على استعمار بلاد المسلمين حتى البرتغال القميئة التي بدأت المسيرة المشؤومة، واستولت روسيا على تلك المناطق التي كانت جنة الحديث النبوي ومهد شيوخه وعلمائه بخارى وسمرقند وما وراء النهر. فقتلت الرجال وهدمت المساجد وأرغمت النساء على الزواج من روس. وقيل إن طبول الجيش الروسي كانت حتى القرن السابع عشر تصنع من جلود المسلمين!! وتسابقت فرنسا، وإنجلترا في احتلال الدولة الإسلامية دولة دولة في أفريقيا وآسيا.

ولم يأت القرن التاسع عشر حتى لم يعد هناك دولة إسلامية مستقلة باستثناء - صحراء العرب - وأصبحت السيادة والعزة، والكرامة للأوروبيين.

وعندما قضى على الاستعمار بالرحيل، فإنه لم " يأخذ عصاه ويرحل " فقد ترك عصاه فيما غرسه من فتن، وما رسمه من حدود، وما اصطنعه من فئات، وكان قبل هذا قد نهب الموارد وحاز الثروات فلما استقلت هذه البلاد لم تهناً باستقلالها إذ اشتعلت فيها نيران الفرقة والفتن التي غرسها الاستعمار وتدهورت أمورها إلى الدرجة التي أصبح بعض أهلها يتمنى عودة الاستعمار.

وحروب الإسلام في بلاده نفسها بأيدي طغمة عسكرية حاكمة رباها الاستعمار، وربط مصالحها به ففي تركيا - دار الخلافة - حورب الحزب الإسلامي الذي نال أغلبية المقاعد في المجلس النيابي حرباً شرسة وانتهكت القوانين ومبادئ الحرية والديمقراطية لتحرمه من السلطة وحدث الشيء نفسه في الجزائر فما إن حصلت الجبهة الإسلامية على الأغلبية في الانتخابات حتى قبض على زعمائها وزج بهم في السجون. فكيف يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتصر إذا كانت تحارب في الداخل بأيدي فريق من شعبها.. وفي الخارج بالاستكبار العالمي والعريضة التي تمارسها القوى الكبرى.

وخلال القرون الخمسة التي تلت تسليم غرناطة ١٤٩٢ وأوروبا تتقدم في مجالات الفنون والعلوم، وفي الثلث الأول من القرن الثامن عشر بدأت أولى قفزاتها " النوعية " بتوصلها إلى القوة البخارية والآلات الحديدية التي أطلق عليها الثورة الصناعية فظهر القطار البخاري وظهرت السفن التي تمخر المحيطات ثم ظهرت السيارات التي تعمل بالوقود وبعد ذلك بخمسين عاماً اكتشفت الكهرباء وكانت تلك قفزة أخرى نوعية أيضاً فتحت آفاق الإضاءة والطاقة والاتصالات حتى انتهى أخيراً إلى الذرة والحاسوب وثورة الاتصالات..

وازدان سجل الاكتشاف والاختراع والبحث بأسماء عشرات الألوف من العلماء في مجالات الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والرياضة إلخ.. وظفر أبرزهم بجوائز نوبل.. بينما لم يظهر من العالم الإسلامي بأسره إلا اسم واحد أو اثنان.. ولا تعرف مساهمة يعتد بها لعالم إسلامي بينما يعمل العدد القليل الذي أثبت نبوغاً من العلماء المسلمين في خدمة الدول الأوروبية أو الأمريكية ويزيدون تقدمها.

أليس عاراً - لا يعدله عار - أن يعيش المسلمون عائلة على غيرهم، وأن لا يظهر منهم من يذكر اسمه وسط عشرات الألوف من الأسماء المضيئة النشطة، المبدعة، المستكشفة التي تطلق الآن على النجوم، وعلى أعضاء الجسم، وعلى قوانين العلم والرياضيات إلخ..

أليس عاراً أن تكون " أمة محمد " هي أكثر الأمم فقراً وضعفاً ومرضاً وجهلاً واستخذاءً.

هذا الوضع المهين الذي يتقل النفس هماً ويفعم القلب غماً لا يهيم في قليل أو كثير قادة " المؤسسة الدينية " في الأزهر بمصر، أو الحوزات بإيران، أو الجامعات بالسعودية، فهؤلاء السادة يعيشون بعقولهم وأفكارهم في عالم يعود إلى ألف عام خلت، ولا يحرك منهم ساكناً عالم العصر بكل ما فيه من دوي وصخب، وهذا أمر طبيعي لأنه إذا كان على أحد الشيوخ أن يدرس الفقه الحنبلي مثلاً، فلا يعنيه في شيء إلا ما قاله الإمام أحمد وأتباعه، وبقدر ما يتعمق في هذا بقدر ما يتدعم مركزه الأدبي والمادي ويتلقى الثناء والتقدير، وينال مرتبه، ويعيش عيشة راضية.. ولا يعنيه بعد هذا أن الإسلام كاد أن يشطب من على خريطة العصر، وأن دولة أصبحت رموزاً للتأخر والتبعية الدليلة، لأنهم لا يرون في الإسلام إلا التراث، وهم حماته، وهم في أفضل حال يظفرون من العامة بالاحترام وينالون من النظم الحاكمة التأييد والدعم وحسبهم فخراً أن يقال عن مصر إنا بلد الأزهر!!

أما الحقيقة المؤلمة فهي أن الصورة التراثية الطقوسية التي عرض بها الفقهاء الإسلام - ولم تخلص منها حتى أشد الدعوات الإسلامية تحرراً - كانت من أكبر دواعي انصراف مجموعات عديد عن الإسلام. لأنهم لم يروا فيما يقدمونه إلا الحض على الشعائر والطقوس والتحذير من سماع الموسيقى والغناء ودخول السينما، وأن صوت المرأة عورة وحلق اللحية من الكبائر ولم يتحدثوا عن حرية الفكر التي جاء بها الإسلام وسبق بها الديمقراطية ولا العدل الذي أكده القرآن مراراً وتكراراً وسبق به الاشتراكية، ولم يسمعوا كلمة عن الإنسان وكرامته ولا عن مشاكل المجتمع ولا معاناة الجماهير وحذروهم من الثورة باعتبارها فتنة ومعصية، ولو كانت على أوضاع تبقى الناس في إسهار الجهل والذل والفاقة والمرض، ولم يوجهوهم وجهة المستقبل وإنما أبقوهم في ظل الماضي وتجاهلوا الطيبة التي من حق الناس أن يعيشوها بما فيها من رضا واستقرار وإشباع.. فأنفض الناس عنهم وعن الدعوة الإسلامية، ولانوا بدعوات أخرى أو أنطوا على أنفسهم.

وفي العالم الخارجي، كادت هذه الصورة الطقوسية أن تمحو الإسلام من على خريطة العصر.

من هنا، فلا ينتظر أن يكون للمؤسسة الدينية، ولا للفقهاء التقليديين ولا للدعوات الإسلامية على الساحة دور في وضع الاستراتيجية الجديدة للدعوة الإسلامية، بل من المحقق أنهم سيكونون أعداء ألداء لها وقد يصمون أصحابها بالخروج عن الملة!

وهذا ما يقال أيضاً على الجماعات التي تدعي " الناصرية " أو " الاشتراكية " أو " القومية العربية " فهؤلاء جميعاً يربطون أنفسهم وأفكارهم بدعوات نشأت عن ظروف معينة، ونجحت في الوصول إلى الحكم بوسائلها الخاصة دون أن يكون لها أساس موضوعي متكامل أو أن تتفق مع الإسلام.

إن واضعي الاستراتيجية الإسلامية يرفضون هذا ويتمسكون بأن تكون استراتيجيتهم فوق المجاملات والمصانعات أو الأخذ بنصف الحقيقة خشية المصالح والقوى والعداوات أو حرصاً على الاستكثار من الجماهير. فالحقيقة كاملة، ولا شيء غير الحقيقة. هي ما يجب أن تقوم عليه الاستراتيجية حتى ولو تكتلت القوى ضدها، وهو ما يجعل واضعيها يققون في العصر الحديث - دون مبالغة - الموقف الذي قال عنده الرسول في بدر " إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعد اليوم ".

## تحديات العصر تحاصر الإسلام

كل يوم يمر يزداد إحساس المسلم بوطأة تحديات العصر، ويحس بالخنق يضيق عليه، ذلك أن اليوم في العصر الحديث يعني شيئاً أكثر بكثير مما كان يعنيه سابقاً فهو بألف يوم من الأيام السابقة، وقد تكون بعض أيامه بألف عام، وفي كل يوم تظهر اكتشافات، واختراعات وتظهر مستجدات، ويحدث هذا لا في دولة واحدة، ولكن في عشرات الدول. في الولايات المتحدة، في اليابان، في ألمانيا، في فرنسا، في سويسرا، في إيطاليا، في الصين حتى نصل إلى دولة صغيرة مثل كوريا، ففي كل دولة من هذه الدول تظهر.. في صباح كل يوم.. اختراعات أو اكتشافات جديدة، وقد يكون لبعضها آثار مدوية على الحياة اليومية للناس في الاقتصاد، والزراعة والصناعة والصحة، والتعليم والخدمة الاجتماعية والاتصال إلخ..

وتتعاظم آثار هذا الإحساس لدى المواطن المسلم بما يلحظه من تخلف في بلده ذاتها، وأنها ليست فحسب لا تستطيع التقدم، بل إنها تضطر للتقهقر إزاء تعقد الأوضاع وتفاقم الأزمات والعجز التام عن الإصلاح لعقم، بل لإجرام، بعض النظم الحاكمة في الدول الإسلامية وارتباطها برواسب سياسة داخلية، وعلاقات بالقوى الخارجية تجعلها عازفة عن أي إصلاح بل وتدفعها لحرب المصلحين واللجوء إلى أساليب التزييف والادعاء وكتمان الحقائق وإظهار الأباطيل والاستعانة بكل وسائل الإعلام وإتقال المواطن بمشكلات الحياة اليومية حتى لا يجد وقتاً أو جهداً أو مالاً للعمل العام.

يحدث هذا في الوقت الذي تتطلق في الغرب قوى العمل، والفكر، والعلم والعمل إلى الأمام قدماً لا يقف في طريقها شيء، بل يجد المساندة والتأييد والدفع.

وليس المهم أن نعدد هذه الاختراعات وآثارها فهي معروفة وملموسة، ولكن المهم أن نعرف أن هذه المستجدات كلها أصبحت في مجموعها تمثل تحديين من أكبر تحديات العصر، التحدي الأول وله طابع عملي ومادي هو " القوة " والتحدي الثاني وله طابع فكري ومعنوي هو " الحرية ".

وبدأ التحدي الأول مع ظهور الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر بالتوصل إلى البخار كطاقة محرّكة، والحديد كمادة لصنع الآلات وكانت هذه الثورة فيصلاً بين عهدين في تاريخ البشرية فقبلها كان الناس في جميع البلاد يزرعون ويلبسون ويمارسون الحرف بصورة واحدة ظلت على ما هي عليه منذ آلاف السنين وكانت تجعل الامتياز فيها للإبداع والمهارة الفردية، والقوة والجلد على العمل، ولكن هذه الصفحة طويت عندما ظهرت الآلات الحديدية التي تحركها طاقة جبارة لا تكل ولا تمل هي البخار يمكنها أن تدبر الآلات وتسير السفن والقطارات وتحقق من الإنتاج أضعاف ما كان يحققه الإنتاج الحرفي اليدوي.

ولم يعد للرفيق والعبيد حاجة بعد أن قامت الآلات بما كانوا يقومون به. وأخذ الإنتاج الآلي طريقه نحو كل مسالك الحياة، ولم يقتصر على الصناعة، ولا على وسائل النقل والمواصلات، ولكن امتد إلى القوة العسكرية، فظهرت المدافع والبنادق وبدأ خط الافتراق يظهر ويتعمق ما بين الشرق النائم عن هذا التطور



والذي لا يزال يعيش في عالم الإنتاج اليدوي الحرفي، وبين العالم الأوروبي الذي يتقدم في صور الإنتاج، يوضح ذلك مقارنة ما حدث في مصر سنة ١٢٠٠ بما حدث لها سنة ١٨٠٠، ففي سنة ١٢٠٠ قدم الصليبيون وعلى رأسهم ملك فرنسا - لويس التاسع - وهاجموا دمياط على حين غفلة واستولوا عليها ولكن المماليك سرعان ما أعادوا صفوفهم وأوقعوا الهزيمة بالصليبيين وقتلوا فرسانهم وأسروا الملك لويس التاسع وسجنوه في دار بن لقمان حتى افتدته زوجته بفضة باهظة، وبعد ستة قرون جاء أحفاد هؤلاء الفرنسيين وعلى رأسهم نابليون بونابرت وظن المماليك أن التاريخ سيعيد نفسه، وسيهزمونهم كما هزموا لويس التاسع منذ بضعة قرون، ولكن نابليون جاء بمدافع وبنادق واستراتيجية عسكرية جديدة أثمرتها التطورات في المجتمع الأوروبي، فلم يستطع المماليك أن يحاربوا بسيوفهم والمدافع والبنادق وانهزموا.

وكانت دلالة ذلك لا تخفى ولم تكن القضية قضية معركة ولكنها قضية عصر جديد، يعرض أنماطاً جديدة، وتهزم فيه البندقية السيف وقضي الأمر. وانتصر الحديد الذي يرمز لصلابة وبأس العهد الجديد.

ومن هذه اللحظة وقد هيمن الغرب على الشرق بقوة السلاح واحتل واستعمر كل أراضيها بجيوشه ومدافعه وأساطيله، وتضاعف أثر هذه الحقيقة في الفترة المعاصرة التي تعجز فيها دول العالم الثالث عن أن تصل إلى مستويات المهارة والتقنية التي تمكنها من صنع حاملات الطائرات والصواريخ والغواصات.. وأصبح العالم الإسلامي في قبضة الجبروت الغربي الذي سيطر عليه بقوة السلاح، وقد رأينا آثار ذلك فيما يفرضه الغرب من عقوبات على بعض الدول الإسلامية ووسائل تطبيق هذه العقوبات من حصار بحري وبري وجوي بحيث لا يمكن لأي دولة متاخمة أو صديقة أن تخزقه.

على أن آثار اكتشاف القوى المحركة والوسائل الجديدة للإنتاج لم تكن محصورة في المجال الحربي والعسكري، لقد كانت أصلاً قوة صناعية تدور حول إبداع وسائل جديدة للإنتاج، تتميز تمييزاً كاسحاً على الوسائل القديمة للإنتاج، وكان المصنع الحديث هو قاعدة القوة الاقتصادية التي حققت لأوروبا فيوضاً من الثروات وفي الوقت نفسه قضت على اقتصاديات الدول الأخرى لتدمرها وسائل الإنتاج الحرفية، واستثنائها بالإنتاج الآلي والأسواق.

وفي الفترة الأولى لثورة الصناعة كان التطبيق العملي للاختراع يتطلب عدداً كبيراً من السنوات، ستين أو خمسين أو ثلاثين سنة، ولكن التقدم العلمي والفني من كل الدول الأوروبية وتراكم الخبرات استحدثت حركة تطبيق الاختراع بحيث تقاصرت المدة بين ظهور الاكتشاف، وتطبيق هذا الاكتشاف وتسويقه تجارياً خلال بضع سنوات.

ومن أحداث هذه الاختراعات أجهزة الاتصال بالأقمار الصناعية التي أصبحت تجعل من الممكن للأفريقي في أدغال أفريقيا، والأمريكي في أحراش البرازيل أن يستمع إلى آخر الأخبار بل وأن يرى على شاشة التلفزيون آخر الأفلام والمسرحيات التي تعرضها مسارح لندن والاستعراضات التي تقدمها مسارح "باريس" وبردواي مما يؤثر تأثيراً بالغاً على الشخصية والمفاهيم.

وأدى توصل أوروبا إلى هذه الاكتشافات والاختراعات لأن تكتسب الصدارة في الاقتصاد الدولي، وأن ترفع إلى مستويات عالية معيشة مواطنيها بحيث أصبح متوسط دخل الفرد فيها يعادل خمسين أو سبعين ضعفاً متوسط دخل الفرد في العالم الثالث، لأن هذه الاكتشافات مكنت مجتمعاتها من الاستفادة بكل شيء في الطبيعة، الهواء، الماء، أمواج البحر، وكل ما كان يهمل من الفوائض أو النفايات إلخ.. فضلاً عن أن المنتجات الآلية أعلى بمراحل من المنتجات الزراعية ووصلت هذه الآلية إلى أعلى مستوياتها في الكمبيوتر ووسائل الاتصال وبهذا استحوذ الغرب على ثروات العالم الثالث بفضل العلم بعد أن كان قد استحوذ على ثرواته بحكم الاستعمار.

فالتحدي الأول للعصر الحديث: القوة: سواء كانت عسكرية أو اقتصادية، وهو أكبر التحديات أثراً وقد حدث نتيجة لتطبيق العلم على العمل ولاعتبار الأبحاث أكثر الأعمال استثمارية وربحية، فبقدر ما يتفق عليها بقدر ما يعوض هذا الاتفاق أضعافاً مضاعفة.

أما التحدي الثاني الأدبي والمعنوي فهو الحرية: وهو لا يقل تأثيراً عن الأول لأنه يمس إحدى المقترضات الضرورية واللازمة لتقدم المجتمعات والحفاظ على كرامة الإنسان..

وهناك عوامل عديدة أدت إلى بروز الحرية في المجتمع الغربي واعتبارها إحدى القيم الرئيسية في حضارته، ولكن يمكن التركيز على ظهور المطبعة في وقت مبكر (قرابة سنة ١٤٥٠) ولو في صورة بدائية للغاية، وقد تقدمت المطبعة خلال مائة عام وبدأ في إشاعة الثقافة بين الناس.

ومن المفارقات أن النهضة العلمية الفكرية، وكذلك فكرة تطبيق العلم على العمل، كانا من الأفكار التي قدمها الإسلام للغرب وقامت عليها حركة الإصلاح الديني من ناحية والثورة الصناعية من ناحية أخرى، وكان يمكن أن تنهض بالشرق لولا الحكم الاستبدادي الذي وأدها.

فقد قدم الإسلام للمصلحين المسيحيين فكرة استبعاد الكنيسة، ورفض وجود وسيط بين الإنسان والله، والبساطة في المساجد وأداء الشعائر، وعدم عصمة "رجال الدين" حتى فكرة القضاء والقدر التي كانت أحد محاور كالفن، ولوثر وبقية دعاة الإصلاح الديني الذي حرر المجتمع الأوروبي من سيطرة البابوية وكفل انتصار المصلحين وأحرار الفكر الذي كانت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ إيذاناً به. كما قدم جابر بن حيان والخوارزمي وابن الهيثم وابن سينا، والبيروني، والزهرابي الوسائل التجريبية في العلوم وتطبيق العلم على العمل الذي قامت على أساسه الثورة الصناعية.

وأخذت مسيرة الحرية تتقدم يدفعها التطور العام ودعوات المصلحين فاكتسبت حق المعارضة السياسية وتكوين الأحزاب وحرية الصحافة والنشر ثم لحقت المجموعات المحرومة من الحقوق كالعامل الذين كونوا نقابات حمتهم من الاستغلال الرأسمالي وكالنساء اللاتي كون هيئات كسبت لهن حق المشاركة في العمل السياسي بما في ذلك حق الترشيح، وكانت المرأة قد زحفت على مجال العمل مدفوعة بالرأسماليين الذين زجوا بها في المصانع لمنافسة العمال الأشداء، وأوجد انتشار التعليم وجعله إجبارياً في المراحل الأولى

جمهوراً واعياً، قارئاً، وعرضت شاشات التليفزيون على شعوب العالم الثالث صورة لحرية المجتمعات الأوروبية وثمراتها الياقة، ومظاهرها في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وتأصلت الحرية بمعنى " حرية الآخر " في صميم المجتمع الأوروبي - بالنسبة للأوروبيين - إلى الدرجة التي تسامح المجتمع الأوروبي في ظهور عديد من المناشط كانت تعد شذوذاً وانحرافاً، وإشباعاً لشهوات وتحققاً لما تهوى الأنفس دون أن تتحرك الحكومات لكبحها تاركة إياها للتطور ومعتبرة إياها ثمناً لا بد من دفعه للحرية وأنه إذا جاز التدخل هنا، فيمكن لهذا التدخل أن يتطرق إلى مجالات أخرى بحيث تتهدد الحرية.

**هذان التحديان.. القوة العسكرية الباطشة التي تخضع كل دول العالم وتبقيها تحت سيطرتها، والحرية الطليقة بكل مظاهرها وتجلياتها..** هما أبرز التحديات التي أصبحت تحاصر عالم الإسلام ولا يجد سبيلاً للتححر منها، دع عنك الانتصار عليها. فلا يمكن بالوسائل التقليدي أن يتوصل إلى ما توصلت إليه أمريكا من قوة باطشة.. كما تتملكه الحيرة أمام الحرية ما بين الإعجاب بها، والخوف منها، لأنها من المحتمل أن تؤدي - رغم مزاياها - إلى أن تهز ثوابته وتزلزل قواعده، والأديان بصفة عامة دعوات يغلب عليها الحفاظ والثبات.

وقد يبدو أن التحدي الأول تحدي القوة - يضع الدعوات الإسلامية أمام باب مسدود أو جدار مصمت، وأن التحدي الثاني يشيع فيها الحيرة والقلق والتذبذب. ولكن الاستراتيجية الرشيدة للدعوة الإسلامية ترى نفسها قديرة على التصدي لهذين..

وإذا كنا قد تحدثنا عن هذين التحديين بنوع من الإسهاب الذي يكشف عما فيهما من صلابة وقوة فذلك لضحالة الإحساس بهما في نفوس معظم الدعاة، وأن موقفهم يتفاوت ما بين تجاهلها أو تقليل أثرهما والإسهاب في عرض نقائص الحضارة الأوروبية وهي نقائص موجود بالفعل، ولكن الحضارة الأوروبية التي توفر لها العلم والحرية تصمد لهذه النقائص لأن الحرية تكشفها، والعلم يعالجها، وهذا ما لم يكن متوفراً للحضارات السابقة التي أدت نقائصها دون توفر العلم والحرية - إلى انهيارها. أما كيف يمكن أن نجابه هذين التحديين فهذا ما تكشف عنه استراتيجية الدعوة في الصفحات التالية.

## المحاور الرئيسية في الاستراتيجية

### أولاً: الاستراتيجية المطلوبة يجب أن تكون استراتيجية تثوير (1) وبناء جديد:

أ- قامت الدعوات الإسلامية المعاصرة بفكرة الدفاع عن الإسلام وإبراز محاسنه إلخ.. والإسلام محفوظ بحفظ الله، والدفاع عنه مهمة المفكرين والكتاب. أما الدعوات الإسلامية فليست مهمتها الدفاع عن الإسلام ولكن إنهاض المسلمين وهي المهمة التي لم تنصدر لها، وكانت النتيجة حدوث فراغ وانعدام وجود الدعوة الإسلام الحياتية، الشعبية.

وتركيز الدعوات الإسلامية جهودها للدفاع عن الإسلام، وليس العمل لإنهاض المسلمين كان أمراً طبيعياً منها لأن إنهاض المسلمين يتطلب أن تأخذ الدعوة الإسلامية طبيعة عملية ثورية حيوية، ولم يكن لدى الدعوات الإسلامية لا الشجاعة ولا التأصيل النظري لثورة التغيير الإسلامية..

ب- النظم الحاكمة القائمة مترهلة ومتضاربة فضلاً عن فسادها، وقيام معظمها على وسائل ديكتاتورية مفروضة على الشعوب وترابطها بالقوى الدولية تحالفات أريد بها الحماية المتبادلة كما أن المؤسسة الدينية اصطنعت بحكم وضعها ولأسباب التي أشرنا إليها في المدخل موقف الحفاظ على الوضع القائم ومقاومة كل جهود التغيير.

ج- لا يملك إرادة وقوة التغيير على أساس نظري متكامل إلا النظرية الماركسية والدعوة الإسلامية، وقد تهاوت الأولى لفقدانها الحرية بينما عجزت الثانية عن الفعالية لتجمدها وتوقعها وفقدانها حرية التفكير والتعامل مع المستجدات.

د- بحكم التاريخ الذي جعل الدين جذر الحضارة في هذه المنطقة، حتى قبل الإسلام، ولأن اللغة العربية - لغة الفكر - هي لغة القرآن الذي حماها من الإذابة في اللهجات الإقليمية، ولأن القيم التي غرسها الإسلام هي التي كونت وجدان شعوب المنطقة. فلا بد لاستراتيجية النهضة أن تكون إسلامية وأي استراتيجية أخرى ستكون غريبة، مستوردة، ولن تلمس نبض الشعب ولن تتجاوب معها الجماهير العربية.

ه- وهناك عامل آخر يفرض " الإسلامية " على الاستراتيجية هو أن غول العولمة وقواه الكاسحة من مال أو سلاح يمكن أن يدمر شخصية الأمة تماماً ويذيبها ليعيد صياغتها كما يشاء.. الإسلام وحده هو الذي يقوى على صد هذه الغائلة- وليس هناك بديل فلاشتركية، والقومية العربية، والوطنية كلها تهاوت كبيوت من ورق، ولا يمكن أن نجد كتاباً كالقرآن، ولا أسوة كالرسول ولا

(1) المقصود باللفظة المعنى الذي جاء به الأثر النبوي " أثيروا " القرآن أو من أراد العلم " فليثور " القرآن.

كوكبة من القادة كالصحابية فضلاً عن زكريات وجهود وعلماء وشهداء على مدار ألف وأربعمائة عام، وليس مطلوباً ولا هو مستطاع أن نمحو الذاكرة التاريخية للأمة، أو أن نبدأ من فراغ أو أن نستجدي النظم، فهذا كله عبث. الإسلام وحده هو الذي يمكن أن يقف أمام خطر إذابة العولمة.

و- وقضية التنمية التي هي التحدي الأول أمام الدول الإسلامية لا يمكن أن تتحقق إلا باعتبارها معركة حضارية إيمانية يعبأ لها الشعب باعتبارها الصورة الحقيقية للجهاد. والإيمان الإسلامي هو القوة الرافعة التي ترفعها من أرض المكاتب والقواعد إلى سماوات الإنجاز، والطاقة المجانية التي تكفل لها دوام العمل، ولن يتوفر هذا إذا قامت بها الحكومات والخبراء، والفنيون أو اعتمدت على الإعانات والاستثمارات والقروض وسياسات البنك الدولي فهذه كلها تربطها بالعولمة وتخضعها لمصالح الدول الكبرى والمؤسسات العملاقة.

**ثانياً:** إذا أريد تطبيق الاستراتيجية المنشودة فلا بد من تقديم فهم جديد للإسلام يختلف تماماً عن الفهم التقليدي السلفي المتفوق الذي ظهر عقمه، ويقوم على تثوير القرآن بمعنى إعادته كما كان أداة لخلق مجتمع جديد وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

أ- يشترط في هذا الفهم أن يكون إسلامياً أصيلاً لا يقوم على التفتيق أو التطويع ويبرأ من الأثر الاعتراري أو التبريري وأن تتوفر له في الوقت نفسه الفعالية إزاء التطورات والمستجدات وتحديات العصر كموضوعات المرأة والفنون والعدل والنظم السياسية والاقتصادية وحرية الفكر وحقوق الإنسان وكرامته إلخ..

ب- لا يمكن التوصل إلى هذا الفكر وبلورته إذا وضعنا كمرجع لها الفكر التراثي كائناً ما كان، والمصدر الوحيد الذي يسعفنا هو القرآن الكريم ومن ثم فإن هذا الفكر يجب أن يكون له منبع وحيد هو القرآن ومصعب أخير هو الإنسان ووسيلة هي تثوير المجتمع.

ولا يعني هذا استبعاد السنة، لأن مرجعية الرسول منصوص عليها في القرآن. فالأخذ بها أخذ بالقرآن، وإذا كان الإسلام قد كتب بحروف القرآن فإن السنة هي النقط على هذه الحروف ولا يمكن فهم الكلمات دون النقط، ولكن النقط أيضاً محكومة بالحروف نفسها التي لا يمكن بغيرها أن يكون للنقط معنى. فالسنة مبينة وليست منشئة أو مغيرة إلا على سبيل الاستثناء.

والرسول في هذه الاستراتيجية هو بتعبير القرآن " أسوة " المؤمنين جميعاً، وعلى نقيض ما يرى الفقهاء التقليديون، فإن ما وضعه الرسول لسياسة الحكم قد يكون أهم وأبقى مما وضعه من تفاصيل الشعائر.

ج- لا بد أن يكون هذا الفهم شاملاً لكل جوانب المعرفة الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وأن ينبع عن نظرية واحدة بحيث لا يوجد تنافر أو تضارب في أجزائها، وأن يتسم بطابع الانتهاض والنفاؤل والتقدير على التغيير والوصول إلى الأهداف التي تحقق الحياة الكريمة للجماهير العريضة للشعب وأن ينهي الفصام التقليدي ما بين الإسلام والإنسان. الدين والدنيا، وتحريم الفنون والآداب والعزوف عن

جعل الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا هدفاً من أهداف الدعوة الإسلامية. إن الحياة في سبيل الله لا تتنافى مع " الموت في سبيل الله " بل لعلها أن تكون الطريق إليه.

- ومن القسّمات الرئيسية في هذا الفهم إنقاذ الفكر الإسلامي من المنطق " الصوري الطقوسي " إلى عالم الحياة وإبراز القيم الحضارية من العلم والعدل والعمل والحرية التي هي في الحقيقة لب الأديان، وبوجه خاص الإسلام.

- ومن القسّمات الرئيسية في هذا الفكر الإيمان بحرية الفكر والاعتقاد إلى آخر مدى " فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر " .

- ومن القسّمات الرئيسية في هذا الفكر أيضاً تحرير المرأة المسلمة من القيود التي فرضها الفقهاء وعزلوها بها عن الحياة.

إن العلم، والعمل والمشاركة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي حقوق للمرأة كفلها القرآن عندما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إلى آخر الآية، ولا يمكن لأمة الإسلام أن تنهض ونصفها مشلول، ومن الخطأ الفاحش أن تختزل قضية المرأة في " الحجاب " .

د- لا بد أن تتضمن الدعوة الإسلامية الجديدة كجزء لا يتجزأ منها صورة للإمكانيات الهائلة التي يمكن أن تتغير بها صورة الحياة الواقعة، بل تقلب الأوضاع الدولية رأساً على عقب، ويكون ذلك بأن يوضع كهدف استراتيجي التوصل إلى طريقة استخدام الطاقة الشمسية استخداماً " تجارياً " ولن يعجز العلماء المسلمون عن التوصل إلى ذلك، وسيعيد هذا مراكز القوة في أوروبا إلى البحر الأبيض المتوسط (كما كانت قبل الثورة الصناعية) وستغرس الحياة الكريمة والنور في القارة التي أطلقوا عليها القارة المظلمة، وستصبح الصحراء الكبرى - التي تماثل مساحتها الولايات المتحدة، وتزيد مزارع ومصانع، ومدن تكفل الحياة الكريمة لكل أبنائها.

وإذا حق لأوروبا أن تفخر بالعدد الكبير من العلماء والمكتشفين والمخترعين، والفنانين والفلاسفة فإن الاستراتيجية الإسلامية تبرز دور " الأنبياء " الذين أنعم الله على الشرق بهم، وكيف كانوا القادة الذين هدوا الشعوب والجماهير إلى الحياة الرضية الخيرة، وإلى ما قامت به الأديان من تعميق الضمير، وإرساء القيم وتنظيم المجتمع وهذا كله يعدل، ويفوق ما أنجبته أوروبا من نوابغ.

وفي حقيقة الحال فإن المؤمنين بهذه الاستراتيجية لا يمكن أن يتطرق إليهم شعور بالدونية، أو أن يصابوا بانبهار لأنهم يؤمنون أن الحضارة التي يدعون إليها أفضل من الحضارة الأوروبية في جوانب رئيسية فالإنجاز الأعظم للحضارة الأوروبية هو في " الأداء " وطريقة الصنع والإنتاج والتعامل وسرى هذا في عروق هذه الحضارة بحيث غلبت عليها " الشكلائية " إلى درجة أصبحت تعتبر كل من لا يأكل بالشوكة والسكين ويلم بأتيكيت المائدة همجياً متخلفاً حتى إن كان لديه الصدق، والإخلاص والعدالة والعقل والذكاء إلخ.. فاستراتيجية الدعوة الإسلامية أبعد عن أن تؤخذ بالحضارة الأوروبية، إنها تعمل - فيما تعمل - لإصلاح نقص الحضارة الأوروبية المميت، إلا وهو ابتعادها عن عالم الروح والقيم.

وفي الوقت نفسه فإن عناية الاستراتيجية بتحقيق الطاقة كأداة لتطوير المجتمع سيخلص المجتمع من التخلف المادي حتى وإن ظل تقدمه أقل مما وصل إليه الغرب، وهو شيء لا تأسى عليه الاستراتيجية - بل إنها ترى أن كبح جماح الاستهلاك وتقييد تعدد الاحتياجات وإشباع كل ما تهوى الأنفس هو أمر مطلوب - وأن عدم وجوده في المجتمع الأوروبي سيكون في النهاية من أكبر مشكلات هذا المجتمع فالتخمة يمكن أن تكون قاضية كالمجاعة.

ه- سيكون من الضروري لهذا الفهم أن يجابه بقوة، وصراحة بعض معالم ومقومات الفكر الإسلامي التقليدي، مثل التفاسير وجنايتها على روح القرآن، والسنة وضرورة ضبطها بمعايير القرآن وإحلال فقه جديد محل الفقه التقليدي والسفلي، وبصفة عامة تجاوز التراث واعتبار أن جذر الفكر الإسلامي الحقيقي والأصيل هو القرآن الكريم وهو محور هذه الاستراتيجية ولا يجوز أن يفتات عليه أو يحل محله وكيل هو التراث.

و- لا بد من صياغة مفردات هذا الفهم في كتابات سائغة، بأسلوب مفهوم بعيد عن التعقيد الأكاديمي والتفهيق التقليدي تفند كل ما يوجه إليها من اتهامات أو ما قد يحيط بها من شبهات، وتنتهي إلى النتائج المنشودة.

على أن لا يمس هذا درجة الإحكام والأستاذية التي يجب أن تتوفر في مراجع لنظرية جديدة أو استراتيجية شاملة.

\*\*\*

عندما يتم التوصل إلى هذا الفهم الجديد المنشود والذي يمثل الأساس النظري للاستراتيجية يمكن الانتقال إلى طريقة تحويل هذا الفكر إلى عمل، والنظرية إلى سياسة policy مع التنبيه إلى مخاطر الانتقال من الفكر إلى العمل قبل استكمال الجانب النظري واستيعاب الجماهير له.

### ثالثاً: طرق التغيير وهي:

أ- التغيير الثوري - بانقلاب عسكري كالذي حدث في سوريا والعراق وكانقلاب ٢٣ يوليو العسكري في مصر.

ب- التغيير التدريجي - بالحكم والموعظة الحسنة بحيث يمكن التوصل إلى تغيير الرأي العام واكتساب رأي عام جديد ومثاله في العصر الحديث الجمعية الفابية Fabian Society التي أسسها في إنجلترا في أواخر القرن التاسع عشر لفيف محدود جداً (خمسة أو ستة) من ذوي الاتجاه الاشتراكي واستبعدوا لوثاته وعملوا لإذاعة هذا الفكر بالنشر أساساً ونجحوا بحيث استطاع حزب العمال سنة ١٩٤٥ أن يحقق ثورة اجتماعية دون حاجة إلى الشرعية الدموية المزعومة للثورات.

كما يمكن أيضاً دراسة سياسات ووسائل التبشير بالمسيحية والشخصيات البارزة في الفكر المسيحي مثل القديس بول واجناز يودي ليولا وفرانسيس الأزيسي وسان فنسان دي بول وقيادات الكنيسة الأرثوذكسية في مصر التي قاومت الاضطهاد البيزنطي، بالاختصار القيادات التي قامت بالتبشير بالمسيحية داخل أوروبا

ونشرتها خارجها وكانت وسائلها التبشيرية والنشر والمدارس. وقد كانت هي التي جعلت معظم زعماء وحكام أفريقيا مسيحيين لأنها أدخلتهم أطفالاً في مدارسها ونصرتهم وكانوا قبلاً مسلمين أوثنين.

ولا يجوز المضاعفة من أثر هذه الوسيلة في المدى الطويل، وبعيداً عن الأضواء. إن نصف النخبة رجالاً ونساء في المجتمعات العربية تقريباً تعلموا في مدارس الراهبات أو الجزويت الفريزر لأن أهليهم أرادوا أن يرسلوهم في بعثات وكان لا بد من إحكام اللغات الأوروبية. وفي حالة الإناث، فإن هذا اعتبر علامة من علامات التقدم. وكان للجامعة الأمريكية في بيروت، ثم في القاهرة وكلية فيكتوريا في الإسكندرية أثر بالغ على تكوين الشبيبة التي تلي المناصب وتضع القرار.

وفي تاريخنا الإسلامي فإن الطرق الصوفية والتجار نشروا الإسلام في الأطراف القاصية من العالم في أندونيسيا والملايو والصين والفلبين وأدغال أفريقيا، وقد أثمرت دعوتهم في الوقت الذي اندثر الإسلام من بلاد فتحت بحد السيف وظل المسلمون فيها ثمانية قرون كالأندلس.

وهناك هيئة إسلامية معاصرة تقدم لنا مثلاً في التعريف بالإسلام هي هيئة التبليغ التي تحدثت الصحف والإذاعة البريطانية من مؤتمرها العام في الأيام الأخيرة من يناير سنة ٢٠٠٠ وقد عدد من حضره بمليونين وقيل إنه أكبر تجمع إسلامي بعد الحج وفكرة التبليغ رغم وعورة وصعوبة القيام بها (لأنها تتطلب عادة السفر إلى أقطار بعيدة للتبليغ بالإسلام) من أنجح الدعوات لأنها بسيطة وسائغة والنقص الرئيسي أن ما يقومون به يدور حول التعريف بالشعائر من صلاة أو صيام والدعوة الإسلامية عندما تنفصل عن روحها تصبح مجرد طقوس ولو بلغ دعواتها روح الإسلام لأسهمت إلى حد كبير في النهضة بالمسلمين وكل من تبلغهم هذه الدعوة..

كما يجب دراسة قيادات الفكر الاشتراكي ماركس وإنجلز وروزا لوكسمبرج ولينين وتروتسكي والقيادات التي نشرت الفكر الاشتراكي في مختلف دول العالم والمشكلات التي عانوها والمآزق التي تعرضوا إليها..

ج- العمل السياسي - بتكوين حزب والوصول للحكم، ويمكن لهذا الحزب أن يتقصد الحكم بطريقة ديمقراطية (حزب العمال في بريطانيا سنة ١٩٤٥) أو بطريقة انقلابية (حزب النازي والحزب الفاشي في ألمانيا وإيطاليا).

**الوسيلة الثانية (ب) أي التغيير التدريجي للرأي العام واكتساب رأي عام جديد هي الأمتثل لأنها:**

- تبرأ من مخاطر الديكتاتورية العسكرية، والانتهازية الحزبية.
- تكفل الإيمان الحقيقي الذي لا يتأتى إلا بتعميق الفكر.
- تتفق مع الإسلام الذي يعني بإصلاح الفرد - قبل وأهم - من إصلاح الأوضاع وتتبع تكتيكة " المرحلة المكية - مرحلة العقيدة قبل المدينة ومرحلة الشريعة".
- مع أنها تتطلب وقتاً طويلاً، وعادة ما لا تكون لها " الجاذبية الثورية " فإنها آمنة، ولا يمكن أن تتسبب في مثل نكسة ٦٧ التي أخرجت العرب مائة سنة أو في تراجيديا " أم المعارك " ومواقف الشرعية الثورية المزعومة كما تكفل البعد عن هستيريا الجماعات الإسلامية التي تتصور أنه يمكن بالعنف إقامة الدولة الإسلامية.



ولكن لما كان الأسلوب الإصلاحى التدريجى الذى ستتجهه الاستراتيجية سيؤدى بروح ثورية نتيجة تثوير القرآن فإن هذا سيوفر له قدرًا كبيرًا من الحماسة والثقة بسلامة الفكرة وقيامها على أعظم المرتكزات - القرآن - وفي الوقت نفسه معاشتها للحاضر واستشرافها للمستقبل، وأن ما تطرحه من حلول هي حلول سليمة ليست فحسب لمشكلة المجتمع العربى الإسلامى، بل أيضًا لحل أزمة المجتمع الأوروبى/ الأمريكى. إنها ثورة الكلمة التى تريد أن تعيد مرة أخرى ما قالت عائشة " فتحت المدينة بالقرآن " دون حاجة إلى قتال أو دماء.

إن هذا لا يقل أهمية في الثورة عن مضمون الدعوة نفسها وقد نجحت دعوة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية الشاردة في تحقيق قدر من الجو الحماسى ولكن لما كانت مرتكزاتها ماضوية، سلفيه، عاجزة عن مجابهة مشكلات العصر، دع عنك المستقبل، فلم يثمر إيمانها عملاً. لقد كانوا على استعداد " للموت في سبيل الله " وليس للحياة في سبيل الله.

إن المناخ الانتهاضى الروحى المطلوب هو ما يثمره تثوير القرآن - هذه العملية التى تبرأ من لوثات الثورات الأوروبية وتخلص في الوقت نفسه من منبطات الإصلاح التدريجى.

وفي الوقت نفسه فمن المهم إبراز أفضلية الأسلوب الدعائى/ الجماهيرى الذى أشرنا إليه آنفاً على الأسلوب الثورى/ السلطوى " وما يحيط بالسلطة من مغريات ومفاسد في الأفراد، وعلى التطبيق. وإن الحكم بوازع السلطان لم يثمر إلا الديكتاتورىة البغيضة، ولا بد أولاً من إيمان القاعدة العريضة للجماهير.

إذا أمكن بلورة النظرية خلال بضعة أعوام وهو أمر ممكن بفضل الكتابات المتاحة بالفعل " أنظر الفقرة الخاصة بالمراجع " والتي تكون الأساس النظرى للاستراتيجية المنشودة وما يستجد من كتابات أخرى مكملة فيمكن تكوين هيئة مماثلة للجمعية الفابية تكون مهمتها نشر وإذاعة هذا الفكر واستخدام كل الوسائل الحديثة للنشر والإذاعة والتعريف كالأشرطة والتليفزيون والإنترنت إلخ.. بحيث يمكن خلال عشرين سنة تهيئة رأي عام يعمل بقوة وإيمان للمشروع الحضارى الإسلامى. ويمكن عندئذ للهيئة أن تؤسس من داخلها حزباً ينفصل عنها بمجرد تكوينه ليقوم بالتطبيق خلال الحكم بوسائل ديمقراطية. وتبقى الهيئة لتراقب حزبها حتى لا ينحرف وتزوده بالعناصر المؤمنة ولتأزره عند الحاجة ولكنها تظل في جميع الحالات هيئة دعوة.

ولما كانت دعوة الأحياء الإسلامى (انظر الباب الثانى من هذا الكتاب) قد بدأت بالفعل في بلورة النظرية، فإن الجزء الأعظم من " طرح الاستراتيجية " يكون قد تم ولو في مرحلة أولية، ويبقى بعد ذلك العمل والممارسة التى ستصقل التنظير وستكشف عن نواحي الكمال أو القصور، ما يجب أن يضاف. وما يحسن أن يحذف. حساب الأولويات إلخ.. وهو ما لا يتضح تماماً إلا بالعمل الميدانى ووسط الجماهير الذى ستمارسه دعوة الأحياء الإسلامى وما يكشف عنه هذا العمل من أولويات أو تعديلات.

## قضية المراجع

١- لا بد من وضع الاستراتيجية المنشودة من توفر مراجع تستند إليها، وتعصمه من الانزلاق، وتعرفها على الأبعاد العديدة للقضية. وأهم من هذا كله تكسبها الوقت الثمين، لأن هذه المراجع تمثل أعمار تبلورت في صياغتها، ومعارف موسوعية ومواهب تميز بها بعض مؤلفيها، فإذا لم تكن موجودة، فلا بد من العكوف لوضعها سنوات طوال ثم لا تكون ضرورة بالمستوى المطلوب.

٢- من المسلم به أن المكتبة الإسلامية هي أوسع المكتبات العربية، وأن وراءها تراثاً ضخماً من المراجع التي اعتبرت الأسس التي قامت عليها العلوم الإسلامية الأساسية - أعني الفقه - والتفسير والحديث.

وليس المجال مجال نقاش ومناظرة حول أهميتها بالنسبة لاستراتيجية جديدة، فواضح بالطبع أن كتب التراث هي أساس الوضع القديم، وأنها بالتالي وبحكم الطبيعة لا تصلح، أو على أحسن الأحوال، لا تكفي لاستراتيجية جديدة.

ورأينا الخاص أنه لم يعد لدينا وقت أو جهد لاستخلاص الاستراتيجية الجديدة من هذا الكم المتعالي من المراجع - فضلاً عن تحفظاتنا الأخرى العديدة على نوعية هذا التراث وصلاحيته. والنقطة الهامة هي أن الأساس الذي وضع عليه الأسلاف ثقافتهم، وهو الكتاب والسنة لدينا، ونحن اليوم أقدر على فهمه منهم ومن ثم فليس هناك داعٍ أصولي في صميم النظرية يدعونا للالتزام بالتراث، ونحن لا نهمل أو نتنكر للتراث أو الجذور، ولكننا نتمسك بأصل وجذر هذه الأصول ألا وهو القرآن الكريم والثابت الصحيح من سياسات وتوجيهات الرسول، وهذا حسبنا.

٣- المراجع والكتب التي وضعها أئمة النهضة الإسلامية الحديثة من جمال الأفغاني حتى الآن تتضمن بلا جدال أفكاراً تسهم في الاستراتيجية الجديدة وبالذات من كتابات جمال الأفغاني ومحمد عبده، ولكن الدعوة الإسلامية الحديثة، لأسباب لا يتسع لها المجال - انتكست شيئاً ما.. بحيث عادت إلى الإطار السلفي - سواء في هذا دعوة الإخوان المسلمين أو دعوات الجماعات الإسلامية على اختلافها (الجهاد - القطبيون إلخ..) وأصبحت داعية للإطار السلفي..

وبقدر ما تتعمق كتابات منظري هذه الجماعات بقدر ما تصدق هذه الحقيقة كما تظهر بوجه خاص في كتابات منظري هذه الجماعات بقدر ما تصدق هذه الحقيقة كما تظهر بوجه خاص في كتابات السيد أبو الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب.

وقد يكون أقرب الكتابات إلى فكرة الاستراتيجية كتاب إقبال " تجديد الفكر الإسلامي " (مع بعض تحفظات) وكتابات النمساوي المسلم أسد " ليوبولد زيف " وهي في الصميم ولعلها الأفضل، وكذلك محاولات

الجزائري مالك بن نبي. كما أن للدكتور حسن الترابي والشيخ راشد الغنوسي والدكتور فتحي عثمان والدكتور محمد شحرور مساهمات طيبة.

واستطاع الشيخ يوسف القرضاوي باجتهاداته ومرونته أن يوسع في إطار الفقه السلفي إلى آخر مدى يحتمله هذا الإطار، ولما كان فقه دعوة الإحياء هو خارج هذا الإطار، فقد يمكن أن يكون ما انتهى إليه هو نقطة البداية أو خط التماس مع دعوة الإحياء وإن كان هناك اختلاف في المنطلق الأصولي يلقي بظله على الدعوتين.

ووضع كثير من كبار الكتاب كتبًا إسلامية، وإن لم تكن في موضوع الدعوة بالذات، ولكنها بالطبع مفيدة مثل إسلاميات العقاد وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وخالد محمد خالد، والشيخ محمد الغزالي.

ويجب كذلك الإطلاع على كتب الشيخ محمد أبو زهرة والشيخ خلاف وغيرهم من أساتذة الفقه لأنهم قاموا بدور مشكور في تبسيط الفقه وتقديمه بصورة سائغة.

أما كتب المستشرقين فليست مفيدة إلا للتعريف على أفكار أصحابها، والإفادة من طريقتهم في التتهيج، ومن المؤكد أن معظمها يخالف الفكرة الإسلامية ويستهدف إثارة الشكوك فيها، ولكن هناك مجموعة محددة متجاوبة مثل إدوارد سعيد، وأناشميل الألماني وبالطبع فإن كتب جارودي وهوفمان إلخ.. تعرض وجهة نظر جديدة وتمثل إضافة من الضروري التعرف عليها.

**تظل الحقيقة أن هذه المراجع كلها لم تستهدف وضع استراتيجية، لأن الحارس القوي للفهم التقليدي والإطار السلفي حال دون وضع أسس استراتيجية تجابه تحديات العصر، وهذا الحارس هو الفقه وما وضعه الأسلاف من أصول أو تفرعات، وما استندوا عليه من تكييف للسنة وتفسير القرآن، وقد أخذ الجميع أصول الفقه الأربعة ومقاصد الشريعة الخمسة كمسلمات لا نقاش فيها، ولا تعقيب عليها<sup>(2)</sup>. كما لم يجادل أحد في مرجعية ومصداقية تفسيرات المفسرين للقرآن أو ما أقامه المحدثون من فنون الرواية والدراية والجرح والتعديل. وقد كان هذا التأصيل للفقه والحديث والتفسير كافيًا في وقته، ولكنه غير كاف الآن، بل إنه أصبح عقبة كئود - أمام التجديد المنشود، وأمام هذه العقبة وقف الجميع. دون أن يتوصلوا - أو حتى يفكروا - في فقه جديد يحل هذه المعضلة.**

وهذا الأمل الطموح والإنجاز المرموق هو ما خص الله تعالى به دعوة الإحياء الإسلامي فتصدت له، وأصدرت " نحو فقه جديد " في ثلاثة أجزاء عالجت فيه أهم القضايا الفقهية وأرست أسسًا جديدة للشريعة تختلف شيئًا ما عن الأصول التقليدية التي أجمعوا عليها.

وقد تصور البعض أن دعوة الإحياء الإسلامي ليست مؤهلة لمثل هذا العمل الفريد لأنها غير متخصصة في الفقه. وفاتهم أن هذا نفسه هو الشرط الرئيسي الذي كان لازمًا لفقه جديد. فما يمكن للمتخصصين التفكير في فقه جديد، ولكن يمكن أن يحكموا دقائق وتفاصيل الفقه الذي تخصصوا فيه، ولا يعني تخصصهم إلا هذا، وهو ما يحول بينهم وبين الخروج إلى آفاق جديدة. بل هو يزيد ارتباطهم بفقههم القديم.

(2) انظر الجزء الثالث من نحو فقه جديد - جمال البنا - الذي يعرض وجهة نظر مختلفة.

وما ينطبق على دعوة الإحياء الإسلامي هنا هو ما قيل على الإمام حسن البنا رحمه الله " كان الأستاذ البنا خطيباً وكان في الإخوان من هو أخطب منه، وكان فقيهاً وكان في الإخوان من هو أفقه منه، وكان مفسراً وكان في الإخوان من هو أعلم بالتفسير منه، ولكن لم يوجد في الإخوان أو غير الإخوان من يجمع أطراف هذه كلها وغيرها بالقدر المطلوب حتى يمكن أن يبدع " الإخوان المسلمين " ..  
وهم يريدون أن يقسموا رحمة ربك وأن يخصصوا بها أنفسهم أو أصحاب الجاه والمال والمشخة. أو المؤسسة التي ادعت لنفسها احتكار التفسير والتأويل، التحريم والتحليل.  
ويأبي الله " والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ..

\*\*\*

المهم: أن صدور " نحو فقه جديد " لما كان في حقيقته تجديداً جذرياً في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما " الأصلان العظيمان " للإسلام، فإنه أفسح الطريق أمام الاستراتيجية المنشودة لتضع منطلقاتها. وفي الوقت نفسه، فإن هذا المرجع بالإضافة إلى المراجع العديدة التي سترد عند الحديث عن دعوة الإحياء الإسلامي حلت مشكلة المراجع.

## القسم الثاني دعوة الإحياء الإسلامي

إذا كنت قد أعجبت بالاستراتيجية التي عرضناها  
أنفأ، فلعلك مشوق لتتعرف على الدعوة التي وضعت  
الاستراتيجية وترفع لواءها: دعوة الإحياء الإسلامي.

## عن دعوة الإحياء الإسلامي بصفة عامة

### ما هي دعوة الإحياء الإسلامي:

ليست دعوة الإحياء الإسلامي هيئة، أو تنظيمًا أو جمعية لها كيان إداري ولائحة ونظام أساسي إلخ.. كما هو الشأن في الهيئات والأحزاب والجمعيات.

إنها ببساطة دعوة، أو حركة، أو تيار فكري وصل إلى درجة البلورة والتنظير التي تجعل له كينونة خاصة متميزة تيرئه من السطحية أو التفيق أو الانتقائية أو الاتباعية.

إنها نهاية عمر وليست بداية فكر، وهي نهاية المطاف وليست بداية المسيرة وهي ثمرة لثقافة موسوعية متعددة الأبعاد وليست نتيجة لتخصص فني أو دراسة أكاديمية في فرع معين من المعرفة الإسلامية، أو حتى فيها كلها، وتعود بذرتها إلى خمسين عامًا مضت عندما أفرد داعيتها الأستاذ جمال البنا في كتابه "ديمقراطية جديدة" (١٩٤٦) بابا بعنوان "فهم جديد للدين" تضمن نواة فكرتها المحورية "لا تؤمنوا بالإيمان، ولكن آمنوا بالإنسان" التي أخذت صيغتها الأخيرة "إن الإسلام أراد الإنسان ولكن الفقهاء أرادوا الإسلام" فالفكرة الرئيسية في هذه الدعوة هي إعادة الإسلام لما كان عليه عندما نزل منذ أربعة عشر قرنًا ثورة لتحرير الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإرادة تغيير مجتمع يعبد ما كان عليه الآباء والأجداد وإشاعة للقيم النبيلة وتكريم الإنسان.

وقد كانت هذه الفكرة هي مدار معالجة الأستاذ جمال البنا طوال خمسين عامًا وعنها صدرت كتاباته العديدة، ومع هذا فإنه لم يسمح لنفسه بإعلان دعوة الإحياء الإسلام إلا بعد أن أصدر الجزء الثالث من "نحو فقه جديد" وأصبح على باب الثمانين من العمر ووجد أن من واجبه أن يبيلور الفكر المنشور في ثلاثين كتابًا، وينسق بينها، وينظمها في سلك دعوة واحدة، يسلمها لجيل جديد حتى لا تموت بموت صاحبها(3).

ولما كانت دعوة الإحياء الإسلامي تيارًا فكريًا ونظرية في فهم الإسلام. فإنها تصبح ملكًا لكل من يؤمن بها، فالأفكار لا تكون موضوعًا لاحتكار وما إن ينشرها صاحبها الأول حتى تصبح ملكًا للجميع. ومع أن حرصنا قدر الطاقة على الكمال.. فإن هذا لا يمنع من ظهور من يقدم لهذه الدعوة إضافة تثريةا أو يكشف مأخذًا فيها.

ودعوة الإحياء تحذر من أن تتحول إلى مؤسسة يكون لها كما يحدث لكل المؤسسات مصلحة خاصة بها - حتى على حساب فكرتها نفسها، وتأمل أن تظل دعوة حرة أو على أسوأ الأحوال مؤسسة مفتوحة.

(3) لعل مما يستحق الذكر أن الأستاذ جمال البنا في كتابه "ما بعد الإخوان المسلمين" عرض دعوة الإحياء عليهم ليجدوا بها شباب هيئتهم ولعله عندئذ ما كان يفكر في إعلان دعوته ولكن الإخوان وقفوا موقفًا سلبيًا.

## لماذا دعوة الإحياء الإسلامي؟

قد يتساءل البعض عن سبب قيام هذه الدعوة، والساحة تحفل بالدعوات الإسلامية. والرد ببساطة أن الدعوات الإسلامية قد ضلت الطريق.

فكما قلنا في "استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين" إن الدعوات الإسلامية نصبت نفسها للدفاع عن الإسلام وإظهار مزاياه. والدفاع عن الإسلام بالدرجة الأولى هو مهمة الأكاديميين والكتاب، والإسلام بعد محفوظ بحفظ الله، ولا يعني الدفاع المجرّد عن الإسلام شيئاً، وكان يجب أن تعنى الدعوات الإسلامية بالغاية التي جاء الإسلام لها فتحقق ما أراده الإسلام. فضلاً عن أن هذه طبيعة الدعوة الجماهيرية.. وأدى اقتصار الدعوات الإسلامية على الدفاع النظري عن الإسلام وتخليها عما أراده الإسلام بالفعل لحدوث فراغ، وكان لا بد أن يُملأ هذا الفراغ.

على أن الدعوات الإسلامية التي نصبت نفسها للدفاع عن الإسلام لم تحسن القيام بهذه المهمة لأنها عرضت الإسلام السلفي، ولأنها جعلت من نفسها أداة لإذاعة أفكار بعض الفقهاء أو المذاهب مما لا يمثل إضافة إلى الفكر الإسلامي، وقد عنيت بعض هذه الدعوات بطبع كتب التراث، وبيعها بأثمان زهيدة أو على أجزاء ونشرها بين طلبة الجامعة إلخ.. وهذا في حقيقة الحال لا يخدم الإسلام بل يقدم صورة عقيمة عن الإسلام ويؤخر بدلاً من أن يقدم فهم الإسلام. وهذا الفهم المغلوط هو السبب في ظهور دعوات تقوم على التعصب أو تمارس العنف أو تقتصر على الطقوس والشعائر والوعظ والإرشاد.. أو تؤمن " بالحاكمية الإلهية " التي ضللت فريقاً من المحدثين، كما ضللت الخوارج من قبل وأدت إلى تضخم "التدين الأخرى" بين معظم فئات المجتمع، خاصة شباب الجماعات والمهنيين ويتبلور هذا التدين في الشعائر وبوجه خاص في الصلاة. فكل جزئية في الصلاة بدءاً من الوضوء والتيمم حتى التسليم في نهاية الصلاة هي محل عناية وتدقيق يعاد فيها إلى المراجع أو يسأل فيه الفقهاء، وقل مثل ذلك عن جزئيات الصيام والحج وعذاب القبر والجنة والنار. وتتعكس هذه الحالة الفكرية النفسية على سلوك وتصرفات أصحابها وطريقة عملهم وتعاملهم. يقابل هذه الجرعة الزائدة من " التدين الأخرى " إهمال "للتدين الدنيوي" أي الأخلاق والقيم التي يدعو إليها الإسلام لتستقيم الحياة من صدق، أو إنفاق، أو حرية أو سماحة أو عدل أو أعمال للعقل أو بذل للجهد. لأن التدين الأخرى لم يبق شيئاً، أو لم يبق إلا القليل للتدين الدنيوي، وهذه هي بالدرجة الأولى - جريرة الدعوات الإسلامية التي شاعت في الثمانينات وإن كانت قد نشأت في السبعينات.

حقاً إن بعض الدعوات الإسلامية، كالإخوان المسلمين مثلاً حاولت أن تجمع ما بين الدنيا والدين وأن تجعل من الإسلام منهج حياة، ولكن الوقت الأعظم لمنشئها النابغ قد أمضى في التنظيم أكثر مما أمضى في التنظير وكانت النتيجة أن الإخوان احتفظت بكيانها رغم ما تعرضت له من صدمات تتوء بها الجبال، من عهد فاروق حتى الآن، ولكن الحصييلة في الجانب النظري كانت محدودة ولا تتناسب مع المدة التي سلختها والجمهور الذي جذبته. إذ لم تستطع مجاوزة الإطار السلفي، حتى وإن كانت وسعت في هذا الإطار وأعطته قدراً كبيراً من المرونة، ولكن التجديد الحقيقي يقع وراء هذا الإطار السلفي، وهو ما لم تستطع - لا هي ولا غيرها من الدعوات الإسلامية - مجاوزته وخوض غماره واكتشاف غيابه.

وليس أدل على العجز الفكري للدعوات الإسلامية على الساحة من أنها لم تقدم تنظيراً أو تحليلاً لتحديات العصر ولكيفية تعامل الإسلام فيها، لأنها جميعاً محكومة بالأطر السلفية التي ليس لديها ما تقدم حلاً لمشكلات العصر..

إن تجاوز الأطر السلفية، والعودة إلى القرآن واعتباره صيحة إنقاذ، ودعوة هداية وإرادة تغيير ورسالة لإشاعة القيم وإعمال العقل - باختصار تثوير القرآن وليس تفسير القرآن هي المهمة التي ادخرها الله تعالى لهذه الدعوة وهي وحدها القديرة على التنظير لها والتبشير بها. لأنها مؤصلة الفكر ومتحررة تماماً من الروابط والصلات التي يمكن أن تقيدتها أو المصالح أو الضغوط الأخرى وليس أدل على تميزها من أنها عالجت بقوة وصراحة التحديات التي يثيرها المجتمع. كل تحد في كتاب، وهي تتقدم إلى الجمهور وفي يمينها ثلاثون كتاباً تغطي مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. فأبي دعوة يمكن أن تبدأ حياتها بمثل هذا الرأسمال الضخم..

من هنا يتضح أن هناك مبرراً قوياً لظهور دعوة الإحياء الإسلامي. لأنها هي التي يمكن أن ترد على التساؤل الحائر "كيف الخلاص".

**هل من الضروري أن تكون دعوة الإحياء "إسلامية"؟**

بعض الناس ممن لا يمتون بوجه خاص إلى الفكر الإسلامي، أو ممن تغلب عليهم ثقافات غريبة، أو ممن غير المسلمين يسأل هل من الضروري لدعوة الإحياء أن تأخذ الطابع الإسلامي؟ هل يمكن أن تكون "علمانية" تقوم على المصلحة، أو القومية، أو غير ذلك من المرتكزات..

والرد أنه إذا أريد لهذه الدعوة أن تكون جماهيرية، شعبية، يتجاوب معها عامة الناس فلا بد أن تكون إسلامية، أما إذا كانت دعوة نخب تعتمد على الفكر المجرد أو تستلهم التجارب والدعوات الأوروبية، بصرف النظر عن المجتمع العربي.. فإن دعوتهم ستكون دعوة "صالونات".

ذلك أن الدين كان في المنطقة العربية منذ أقدم العصور نبع القيم والضمير وأساس التشريع والقانون وبتأثيره أقام المصريون القدماء معجزات الآثار في الجيزة والصعيد وعندما ظهرت المسيحية قامت مصر بدور مؤثر في تاريخها وظهر فيها في وقت واحد قطبا الفكر المسيحي اثناسيوس وأريوس وأبدعت فكرة الرهبنة التي كانت إلى حد كبير ملاذاً من عدوان المحتل البيزنطي، وأخيراً عندما جاء الإسلام رحب به الأقباط لأنهم وجدوا فيه السماحة، ولأن الميلاد الحديث للكنيسة القبطية تم على يدي عمرو بن العاص عندما استنقذ البطريرك بنيامين من مهربه البعيد وأعطاه كل السلطات كرأس للكنيسة، وقلما نجد في تاريخ الأديان شيئاً كهذا. وقدم الإسلام الفرصة التاريخية للمدينة، ودمشق وبغداد لتكون عواصم للإمبراطورية الإسلامية، ولما سقطت بغداد قامت مصر بالإبقاء على راية الإسلام مرفوعة، ووقع عليها الدور التاريخي المجيد دور إيقاف هجمة التتار، وما لا يقل عن ذلك إيقاف الحملات الصليبية.

وما حدث في مصر يمكن أن يقال على الشام والعراق فهل كانت تطمع دمشق في أن تكون عاصمة إمبراطورية، وهي التي كانت على مدار التاريخ ما بين مصر والرومان وبيزنطة، لولا الخلافة الأموية..



وهل كان يمكن أن تظهر بغداد لولا أبو جعفر المنصور والخلافة العباسية، فهذه المناطق كلها تدين بوجودها الحديث للإسلام.

وأي دارس أمين لطبيعة المجتمع العربي لا بد وأن يعترف بالأثر العميق للإسلام عليه وأنه تغلغل في أعماق المجتمع حتى خالط اللحم والعظم، ونحن لا نعلق هنا على دلالة تمسك جماهير الشعب بالصلاة باعتبارها شعيرة خاصة جدًا بالفرد، وقد لا يظهر مردودها بشكل مباشر، ولكن خذ الصيام مثلاً الذي يشمل أثره الفرد كما يشمل المجتمع.. فالمجتمع كله يتغير في رمضان، تبعاً لما يقتضيه الصيام بما في ذلك تغيير مواعيد الوجبات والأخذ "بالسحور" الذي يسبق الفجر، وما يفرضه رمضان على المجتمع من ابتعاد عن المجاهرة بالفواحش إلخ، ولا يقل عن ذلك أهمية الزكاة فإن نسبة كبيرة من الأغنياء يقدمون الزكاة إلى الفقراء من الجيرة أو الأهل أو المعارف مما حال دون زيادة تدهور الفئات الفقيرة وأوجد قدرًا من التراحم والتماسك الاجتماعي، كما قام نظام الوقف بدور الممول الأكبر للمدارس وللهيئات العلمية ولمختلف وجوه البر، وهذا كله إنما تحقق بفضل الإيمان الإسلامي وتطبيق ما أمر به الدين وما كان المجتمع القديم ليستطيع التماسك في ظل استبداد الحكام وجورهم، إلا بفضل وجود هذه النظم.

ولم تأخذ حركات التجديد في الشرق العربي طابع الثورة على الإسلام - كما أخذته في أوروبا ضد المسيحية أو الكنيسة - بل بدأت بأفراد يمتون إلى الأصل الإسلامي - مثل رفاة رافع الطهطاوي، وعلي مبارك في مصر أيام عباس الأول (الذي خلف محمد علي) ثم جمال الأفغاني ومحمد عبده في عهد الخديوي إسماعيل وتوفيق بل إن أحمد لطفي السيد سافر إلى الأستانة ليلقى جمال الأفغاني ويتلمذ عليه، وعندما ظهر جيل جديد يبحث عن أيديولوجيات أخرى كالماركسية أو الفرعونية والأخذ باللهجة العامية دون العربية الفصحى فإن هذا الجيل فشل تمامًا ولم يرزق أي شعبية. فالتكتلات الماركسية ظلت غريبة على المجتمع المصري. واعترف محمد حسين هيكل بفضلها في فكرة الفرعونية آونة، والمثل الأوروبية مرة أخرى، وعاد إلى الأصل الإسلامي بل إننا نجد كاتبًا قبطيًا ويساريًا وداعية لاستخدام العامية كالدكتور لويس عوض وهو يفشل في ذلك ويقطع عنه حتى في "مذكرات طالب بعثة" التي بدأ بها تجربة الكتابة بالعامية إذ تتخللها عبارات قرآنية أو إسلامية. كما نجد الاستشهاد بآيات قرآنية أو بأقوال لعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد في خطاب الحزب الشيوعي السوري - الذي كان يعد من أقوى الأحزاب في العالم العربي. وقد كان شبلي شميل وهو طبيب لبناني استوطن مصر - ملحدًا وترجم أصل الأنواع لدارون. ولكنه دافع عن الإسلام وبرأه من أن يكون علة تخلف المسلمين.

وباستثناء قسم من سكان العواصم وبعض الفئات الأخرى فيمكن القول إن جمهور الشعب العربي في المدن والقرى لا ينقصه التدين، بل لعل نصيبه منه أكثر من المطلوب، وإن حالت المفاهيم الشائعة والمغلوبة لهذا التدين دون بروز قيم الحرية والعدالة والمساواة في المجتمع. على ما أشرنا إليه من غلبة التدين الأخرى على التدين الديني.

وإذا كان التاريخ الحديث اصطنع أصولاً وقوى ومرتكزات غير الدين، فإن هذا حدث في أوروبا التي لم تكن يوماً أرضاً لأديان، ولم نسمع فيها بنبي أو رسول، وقد كان هوميروس ومجموعة الشعراء اليونانيين،

والمسرحيين الكبار هم الذين صنعوا الديانة اليونانية، ووضعوا مبادئ الضمير والخلق والواجب، وتأثرت بهم الحضارة الرومانية وظل ذلك حتى العصر الحديث، وما يصدق على أوروبا لا يصدق على الشرق، فالأمم كالأفراد له قدرها ومصيرها المعين الذي لا يمكن تغييره أو الإفلات منه.. فلا يمكن أن تتجاهل تاريخنا ونستجدي تاريخاً آخر. إن هذا غير ممكن وغير مطلوب.

من ناحية أخرى فإن الزهد في أن يكون للدعوة طابعاً إسلامياً يغلب أن يعود إلى الفكرة المغلوطة المأخوذة عن الدين التي يروج لها ويدعو إليها رجال المؤسسة الدينية من شيوخ وخطباء مساجد من الذين لا يعرفون عن إسلام إلا الطقوس العبادية والشعائر والمظاهر التي هي من الدين كالجسد من الروح، ولعله معذور في ذلك. ولكن الحقيقة هي أن الأديان أعظم وأنبأ فكر أراد الله به هداية البشر وهو يمثل قيم الخير والحب والمساواة والعدل والحرية وهو الذي يخرس في النفوس مبدأ الإيثار والإحسان والرحمة.. وهو الذي يلهم الفنانين والكتاب روائعهم وهو الذي يلمس أسرار الروح وعوالم القلوب، وهو الذي يلزم الحكام والأغنياء العدل في السياسة والاقتصاد ويبقى على البيت والأسرة ويربطها برباط من المحبة والتزم، وحتى بالنسبة للذين يضعفون أمام الإغراءات فإن الدين لا يرفضهم لأنه يعترف بالطبيعة البشرية وهو يدعوهم إلى الاستغفار ﴿ وَكَوَّأْتَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ فكل ما يمكن أن تقدمه أفضل النظم السياسية والاجتماعية والآداب والفنون توجد في الدين. فالدين هو نخر البشرية وهو هدية الله تعالى للبشر، وإذا كان برومثيوس قد قدم للبشرية النار.. فإن الأديان قدمت للبشرية النور.

وحتى بالنسبة للوسيلة، فالذين يضيعون بالإسلام لأنه رمز الحفاظ والتقليد إنما نظروا إلى الفقه السلفي وجعلوا الطبيعة الأولى للإسلام والدور الثوري الذي قام به بحيث حقق أعظم ثور شاملة في تاريخ العالم بأقل قدر من العنف والدماء، ولو ترك الإسلام دون مهاجمة لما اضطر إلى القتال، لأن ثوريته تكمن في المعاني والقيم والأثر النفسي العميق الذي يوجده القرآن في النفوس فهنا- يمكن أن تقوم ثورة دون دماء أو تفتح مدينة دون غزو كما "فتحت المدينة بالقرآن" كما قالت السيدة عائشة، وبهذا يمكن للثوريين أن يستظلوا بلواء الإحياء الإسلامي.. إلا إذا كانوا يريدون الدماء وليست الثورة.. أو يقرون ضرورة ما بين الثورة والدماء..

ومن غير المستساغ أن ترفض بعض الأقليات أن يعيشوا الإسلام الذي يمنحهم ما يمنح المسلمين " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وبينهم وبين الإسلام أصرة الدين التي هي أقرب إليهم من القوميات أو الاشتراكية أو المذاهب الأخرى خاصة إذا كان هذا الدين يعترف بأنبيائهم ويوقرهم..

ويظل بعد كل شيء الإسلام أبرز مقومات المجتمع العربي وقد يفوق أثره أثر العامل الاقتصادي الذي يعد عادة أقوى العوامل تأثيراً في المجتمع. ولهذا فإن أي دعوة تتجاهله تقطع أقوى أصرة مع وجدان الشعب. وتصبح غريبة عنه وتخسر أعرق مرتكز يمكن أن ترتكز عليه.

- ٢ -

## ميثاق دعوة الإحياء الإسلامي(\*)

"إيماننا"

- ١ -

نؤمن بالله. إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية. وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثاً، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيواناً متطوراً أو "سوبر حيوان". والإيمان بالله الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغني شيئاً، بل قد يضر.

- ٢ -

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك إلخ.. وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساعت إلى البشرية.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول. على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسول جميعاً، وإن الله تعالى أراد التعدد والتنوع ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة.

- ٣ -

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوروبي فكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التكر له، وفي الوقت نفسه - فإنه لا يحول دون تلاقح الأفكار وتجاوز الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن. ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن الله تعالى هو الذي أضفاها على بني آدم جميعاً، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي تعم الجنس البشري من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء إلخ.. وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له. إن كرامة الإنسان يجب أن تكون في أصل كل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويجب أن تحرم تحريماً باتاً كل ما يهدر كرامة الإنسان، جسداً ونفساً.

(\*) وضع الأستاذ جمال البنا هذا الميثاق لمؤسسة "قوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي" التي تكونت سنة ١٩٩٦ ولم يزد الميثاق الحالي إلا فقرة واحدة هي الخاصة "بتثوير القرآن" في بند ٩.

ولما كان الإسلام قد جاوز - كما ونوعاً - الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات.

- ٤ -

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لأدم هو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقية الكائنات، والتي تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفاً رئيسياً للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمة. ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر. إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية.

- ٥ -

نؤمن بحرية الفكر، وإنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شيء، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق، وفي القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وأن مردها إلى الفرد نفسه مثل ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ إلخ..

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سلمية. ونحن نرفض تماماً دعاوى التكفير والردة، ونكلها كلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول.

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه.

- ٦ -

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرعوسين، الرأسماليين والعمال، الرجال والنساء إلخ.. لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجوز إعطاء فئات.. سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى. إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به.

- ٧ -

إن التحدي العملي الذي يجابهه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً واجتماعياً، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل " التنمية " معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من " الجهاد " واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها. ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية.. تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية

المطلوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى. وأي محاولة للتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوروبية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط.

وبالمثل فإن أي محاولة للتنمية يضعها خبراء أو حكومات دون أن يكون لها الأساس الإيمانى والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل.

- ٨ -

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست هي صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة (٥٠ سنة) لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية. ثم جاء الملك العضوض، وتدهور الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد إلخ.. وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقى عليها المؤسسات الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور.. أو الإبقاء على المصالح المكتسبة. ونحن نرفض هذه الصورة، ونعمل لإحياء إسلامي.

- ٩ -

لا يمكن تحقيق أي إحياء إسلامي إلا بالعودة رأساً إلى القرآن الكريم - وضبط السنة بضوابطه وعدم التقييد بما وضعه الإسلام من فنون واجتهادات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

لقد كان الإسلام أصلاً دعوة لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور - وإحلال "الكتاب والميزان" أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم وإساعة قيم الخير، والعدل، والحرية، والعلم إلخ.. التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر هي جسم الإسلام والاقتصار عليها - دون القيم - هو احتفال بجسم لا روح فيه. بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي، فليس المهم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن.. وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن. وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العالم القديم.

- ١٠ -

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البدهة، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة. تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام. إن التطور الاجتماعى للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم - فضلاً عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

إن الإسلام لا يحتكر - وحده - الحكمة، ولكنه ينشدها أنا وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات - كما أنه يقدم خبراته "فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجوداً من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار.. كل هذا يخالف جوهر الإسلام.. وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان. كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان المسلم في الحضارة العصرية، لأن خيطاً وثيقاً يربطه بالله والرسول يبقي له قدرًا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه.

### تعقيب:

ليس في هذا الميثاق ما يتطلب الشرح، لأن لغته سهلة وبراهينه ناطقة وواضحة، وما نريد أن نثبتته هنا هو أننا في مفاهيم الميثاق العشرة استلهمنا أولاً القرآن ثم الصحيح الثابت من ممارسات وأقوال الرسول. صحيح أننا لم نتوصل إلى هذا إلا بفضل المفاهيم الأوروبية والثقافة الحضارية الحديثة التي فتحت آفاقاً كنا غافلين عنها وما كان يمكن أن نصل إليها لو ظللنا عاكفين على ثقافة التراث، وبذلك أعدنا استكشاف الإسلام ووجدنا أن كثيراً من القيم التي تدعو إليها الحضارة الحديثة مثل حقوق وكرامة الإنسان. وحرية الفكر. وأهمية العلم والعمل في نهضة الشعوب والتعددية والانفتاح إلخ.. هي مما سبق إليه الإسلام ومما قرره القرآن صراحة وتكراراً. فطريقة الميثاق في إثبات وجود الله تعالى ومنزلة الإيمان بالله التي تختلف تماماً عما جاء في كتب الكلام الإسلامية، وتقترب من طريقة الاستدلال الحديث هي في حقيقة الحال من صميم ما تضمنه القرآن الكريم. وإذا كانت كلمة حرية لم ترد بهذا التعبير في القرآن، فليس ما هو أدعى إلى الحرية من ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وهذه الحرية المطلقة هي في أهم شيء بالنسبة لدين أي الإيمان والاعتقاد، ونحن لم نستورد الحرية من الثقافة الأوروبية - ولكن من القرآن وإن قدمت الثقافة الأوروبية الضوء الذي رأينا عليه الحرية في القرآن وكلمة "تثوير" ليست من القاموس السياسي الأوروبي والاشتراكي خاصة. فقد وردت على لسان الرسول نفسه وكل دورنا كان بعثها من جديد ورفع الغشاوات الكثيفة التي حالت دون ظهورها.. وهذا ما ينطبق على كل ما جاء في الميثاق عن كرامة الإنسان وقداسة العلم والمعرفة والانفتاح على الحضارات والتعارف ما بين الأمم والشعوب. فهذا كله منصوص عليه صراحة في القرآن الكريم.

## فكر وفقه دعوة الإحياء الإسلامي

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الإحياء الإسلامي على غيرها، وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها.

فالدعوات الإسلامية قد ترحل ميدان الإصلاح بفكر سلفي فلا تجدد شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء؛ لأنهم لم يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد الساعة إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعلها كله مردود وليس إلا صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، وهذا ما لا يمكن تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن إصلاحها على حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخاذاً مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن تعني بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن به تطبيقه وأثار ردود الفعل إلخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأسوأ الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم - الخوارج - بأيديهم الرجل الذي كان الرمز الحقيقي للحاكمية - وهو علي بن أبي طالب - وأفسحوا المجال لمعاوية الذي جاء بالملك العضوض. وقد تعني بالتدين الأخرى على حساب التدين الديني.

لقد ضلت هذه الدعوات.. وأضلت

إن دعوة الإحياء الإسلامي شيء آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى النقل. وعندما أعملت العقل انتهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامي. كما يختلف عن الموقف الأوروبي السلبي الذي فضل أن يتجاهل أعظم قضية في الوجود - قضية وجود الله - لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائي، الذي لا يعبر إلا عن طفولة العقل الإنساني. فما دام الله غير محسوس لا يمكن أن تتاله الحواس، فلا داعي للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلاً تواصلوا إلى فكرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة على الفكر الأوروبي وحكمها القصور البشري الذي يعجز عن أن يأخذ الصورة المثلى لله، ولا بد أن يأتي بها وحي من السماء، ولما كانوا فلاسفة وليسوا أنبياء، فقد وقفوا في منتصف الطريق.

وفي الوقت الذي رفض فكر الإحياء الإسلامي طريقة ومنهج علم الكلام، فإنه وجد طلبه في منهج القرآن الكريم وتلاقي العقل مع الوحي في اعتبار أن القضية المحورية في الإسلام (وبالطبع في كل دين) هي الإيمان بالله. ومن أصل هذا جاء البند ٨ الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامي يبرز هذا الإيمان أولاً وقبل كل شيء. ويبرزه بالصورة العقلانية/القرآنية. وتعتبر نقطة البداية وواسطة العقد في الإيمان الإسلامي الذي يغطي الكون كله وليس الإنسان الذي يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون..

وهذه الصور المميزة للإيمان بالله هي ما تميز دعوة الإحياء الإسلامي عن بقية الدعوات كافة.. أوروبية. أو إسلامية.. وما يعطيها رشد الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون.

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامي أنها لا تقتصر في النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتحصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئاً عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامي تنظر إلى الدين من خارجه أيضاً بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها آحاد الأشجار عن الغاية، وهي تصطبح معارف من خارج الدين أيضاً. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التي يمكن أن ترمز إلى الله أشبه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسي هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجماً تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والآداب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم إلخ.. وهذه الأنهار تتبع من البحيرة نفسها "الحقيقة" وتصب في المصب نفسه وهو الإنسان، ومع أنها جميعاً تتبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجراه الخاص - إضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما يأتي به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ الحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدينين، وكيف أن الربا كان يؤدي إلى استرقاق المدين نفسه، فإن إيمانه بتحريم الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدي إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والفرعون سي تدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيماناً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحيّاً. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصارهم في فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما القرآن من قيم كالحرية والعدالة إلخ.. ضحلاً وسطحيّاً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرم بني آدم، وندد بالاستغلال ولكن هذا الكلام ليس له أي مضمون عملي لديهم، وهم أنفسهم يمتنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن المضمون العملي الذي هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية في العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير إلخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الديني".

ومن هنا اتسمت دعوى الإحياء بالشمول والفهم عامة والتسامح التي لا يطيقها، ولا يقبلها، الذين حصروا أنفسهم في "النصوص".

ولم يحدث أي تفارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ إلخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية - وعلى نقيض مسلك الآخرين. عمدنا رأساً إلى القرآن الكريم. ولو أننا - أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضاً كبيراً.

إن دعوة الإحياء الإسلامي عندما انطلقت من القرآن وحده، رافضة الالتزام بكلام المفسرين تراعت لها عظمة وروعة وعبقريّة القرآن وتفتحت آفاقه وعطاؤه الذي لا يحد، وكانت تحجبه غشاوات مجلدات التفسير. ومن ثم أمكن أن نستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامي من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن نعززها بشواهد التاريخ.



وقد وجد فقه دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعته المعايير الدولية لها.

بعد هذا المنطق القرآني وجدنا أماننا السنة، وهي مادة الفقه الإسلامي ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرآن - يعود بناء الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم. ولكن دعوة الإحياء الإسلامي لم تتقاعس، أو تستسلم فأبدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية. **التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم.** وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت نفسه، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذي أحجموا عن ممارسته) قد يستبعد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح.

وترفض دعوة الإحياء الإسلامي كل ما يوجه إليها من ادعاءات.. هل خفي ذلك على البخاري ومسلم واستكشفتهم أنتم؟ وهي تراه نوعاً من الفرار من المقولة إلى القائل وشكلاً من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذي ندد به القرآن ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. نقول نعم، لقد تهيأ لنا من وسائل البحث والتحصيل وبفضل شيوع الثقافة والمعرفة ما لم يتهيأ للسابقين، ومن الطبيعي أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا في شيء إخلاصهم وتقانيهم وتقواهم. **التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطار القرآن إنما جاء بوحي سني، أريد به البقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأييد وحي القرآن.**

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامي هذه الفكرة أو تخرعها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هي:

أ- أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام إلخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسيًا.. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأييد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لهم التأييد ولو أراد لذكرها.

ب- لما كان من الضروري تحديد هذه التفاصيل فإن القرآن وكل تبيانها للرسول ﴿.. لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

ج- قام الرسول بهذه المهمة لا من لقاء نفسه، ولكن طبقاً لوحي سني يختلف في طريقتة ومقتضاه عن الوحي القرآني الذي كان له طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآني بحرفيته.

د- في الوقت نفسه فإن الرسول نهي عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئاً أن يحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التدوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدي عمر بن عبد العزيز.

ومدلول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأييد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السني يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه

فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضاً ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. دون أن يكون الداعي لهذا هو الهوى أو الاختيان.

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث ديناً عاماً ودائماً كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم.

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول عليه السلام في الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: "أطيعوني ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأحلوا حلاله وحرموا حرمه" وفي رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال "أطيعوني ما كنت بين أظهركم وعليكم بكتاب الله أحلو حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذي اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروي بعضهم عن بعض يبنى بأن الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجوداً ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب.. (4).

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلاً عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشري الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعاً (5).

\*\*\*

بعد القرآن والسنة - وجدت دعوة الإحياء الإسلامي - أمامها التلال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تتحي كل هذا جانباً، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون مينة، ولأنها تؤمن أن القرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما أنزل الله" وليس إتباع الآباء والأسلاف. فهو لاء الأسلاف رغم تقانيهم وإخلاصهم - لم يرزقوا الكمال.

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجاً في أن تعلن أن الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا يصدر عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها - ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أنكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا تجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعده تماماً، أو تستأنس به في هذا الفقه الجديد يحل العديد من أزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشريعة، وهو تمييز أشار إليه الشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قام به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن

(4) انظر الحديث في زيادات محاسن الإطلاع على مقدمة ابن الصلاح للبقيني تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن (دار المعارف بمصر) ص ٦٨٤ - والحديث أورده الهيتمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠ وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(5) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل إليه. وكذلك في كتابنا "الأصلان العظيمان. الكتاب والسنة".

العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشريعة. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم الوحي ووسائلها قراءة القرآن وتدبيره والقربات إلى الله تعالى.

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تزج بنفسها في خضم الدولة، أو المجتمع. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدية هي إلى الأفراد وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو المجتمع، أو حتى مثلت نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة التكنولوجية التي لا تكون دول العقيدة<sup>(6)</sup> ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضي عليها كعقيدة. إن هذا التكييف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكماً أو هوى ولكن بناء على طبيعة العقيدة.

أما الذي يدخل في مجال الحكم فهو " الشريعة "، والشريعة هي عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، الرجال مع النساء الخ.. ففي هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هي القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح للدولة الإسلامية في أحكامها طابعاً عقلائياً.

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلاً جدياً مع التنظيم العقلائي للدولة فإيمان الأفراد يجعلهم يطلبون تطبيق الشريعة، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمي العقيدة من تسلل الخرافة.

وفي قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمره النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنين - العقيدة والشريعة - تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التي تتمثل في الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظوراً عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة.

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد في المجتمع الإسلامي صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها أرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطاً إسلامياً، لأنها نشاط إنساني يعود حسابها وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة<sup>(7)</sup>.

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المعقدة فإنها بنظرة واحدة رأت أن كلمة " وتظلمون " الأخيرة في الآية ﴿ وَإِنْ تَبُئْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ يتضمن اعترافاً بأثر التضخم حتى لا يؤدي تجاهله إلى الحيف على الدائن وظلمه لأن الظلم كرهه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم على أكثر أنواع الربا انتشاراً في عصر يجعل التضخم أمراً لازماً..

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التي تحسم شفافاً تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلى اختلاف حول قسمة العائد يحسمه العدل الإسلامي. كما لم نجد

(6) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن نقول أمة العقيدة.

(7) وانظر أيضاً في الفصل الخامس الموقف من الفنون.

صعوبة من تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيرًا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه في بعض الحالات وهو جوهر النقابية (8).

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق" وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشريعة، قدر ما عزف عن "سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاصة الذي وضعه القرآن الكريم ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ كما تتناقض مع منطقة - أي منطق المقاصة - في آيات عديدة.

\*\*\*

هذا عرض سريع للطريق التي توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامي إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التي أوجدتها تعقيدات الفكر السلفي والفقه التقليدي. وستقدم بقية فصول هذا البحث المزيد من الشرح والإبانة.

---

(8) انظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥

## نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هي أبرز وأعم ما تتسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هي السمة المشتركة بينها جميعاً، فقد رأينا أن نفرد لتفنيده هذا الفصل الموجز لعله أن يشفي هذه الدعوات من دائها العصال، فمهما كان نبل العاطفة التي تشد هذه الدعوات إلى الماضي المجيد، ونحو القرون الثلاثة التي ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تناقض الإسلام.

وتناقضها مع الإسلام يتأتى من أمرين:

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية في حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية.

الثاني: أن الإسلام يمثل الموضوعية وهذه النزعة تمثل الذاتية.

وفيما يلي تفصيل هذا الإجمال.

### المستقبلية والماضوية:

يغرس الفلاح البذور في الأرض ناظراً للمستقبل الذي سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيأكل منها فوراً، كما أنه عندما غرسها في الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلكها لكسب الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "التقاوي" بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوي أن توجد له أطناناً من المحاصيل..

ويوفر التاجر من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر..

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبلين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا كأسرها كقنطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملاً ودأباً وكدحاً وكفاحاً ومجالاً لأداء الصالحات وكبح الشهوات وهذا العم والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الدنيا بأسرها قنطرة للمستقبل في حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددًا أو أن يسخر الأب حياته لمستقبل أبنائه.

ففكرة العكوف على الماضي واستلهامه مخالف تماماً للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلاً عن هذا كله في التغزل في هذا الماضي والإشادة به. أو تجعل الشحادة منه عملاً وحرفة، وهي في أعماقها مرض نفسي تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام في مستقبلية لا ينظر إلى الماضي ولا يقدر القبور، أو يعطي بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها فللاعتبار، وقد رأى أن التمسح بأركانها أو تصور أي قوة فيها نوع من الشرك والماضوية في حقيقتها "قبورية" ووثنية..

## الموضوعية والذاتية:

والجانب الثاني الذي تتناهى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعي. أي أنه يمثل الفكر، والمبدأ والقيم في حين أن الماضوية تمثل التراث، والأشخاص والممارسات، وفي حين أطلق الإسلام على أتباعه اسم " المسلمين " أي الذي يؤمنون بالإسلام وقيمه الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون اسم " السلفية " وما السلفية إلا أتباع السلف وطرائقهم ومذاهبهم ولو كان الإسلام له طبيعة ذاتية لكان الاسم الطبيعة لأتباعه " المحمديين " ولكن الإسلام رفض هذا وسمي أتباعه المسلمين أو المؤمنين ويتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تندد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية).

ولما كان الإسلام محكمًا في بنائه، كالجسد الواحد الذي يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتناظر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسيء إلى الجسد بل تتلاقى كلها في العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذاك في نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثيق الأشياء أو إبتاع الآباء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتنديده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد وبهذا يكون الإسلام بمستقبلية وموضوعيته في واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها في واد آخر.

وقد جعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها في الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام وأن هذا هو من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تنتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات. والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء في رفض الماضوية وسلفيتها وذاتيتها لأنهما معًا يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية.

وأي شيء أكثر حسماً وقوة في التنديد بإتباع الآباء والأجداد من هذه الآيات.

﴿ قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة ١٧٠)

﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤ المائدة)

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلِفَتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (٧٨ يونس)

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ (٤٠ يونس)

﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٤ الأنبياء)

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢٢ الزخرف)

﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (٦٢ هود)

وكل الآيات أو الأحاديث التي تشيد بأشخاص وإنما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضيفي القرآن على أحد من المخلوقين عصمة أو توثيقاً وقد خص الله تعالى رسله بوحيه وتوجيهه ولهذا جاز

للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهي صفة ليست لغيره، وعندما أمدح الصحابة فإنه أمدحه لأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ وختم الآية ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وكل آيات المدح في القرآن تنصب على ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ولم يعد الله تعالى العرب بورثة الأرض ولكن " الصَّالِحِينَ " ولم يعط للأنبياء من سلطة سوى التبليغ والبيان وحذرهم في عبارات جازمة تجاوز هذا.

وقال الرسول " مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره ". بل لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا به ولم يروه، وأرد الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عددًا من الأحاديث بهذا المعنى منها:

- عن أبي محيز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضي الله عنه حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثًا جيدًا، تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وددت أني لقيت إخواني فقال أصحاب النبي ﷺ نحن إخوانك. قال أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني.

- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ طوبى لمن آمن بي ورآني مرة وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات (9).

وهذا يدل على أن الأخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وأن الذين لم يشاهدوا النبي وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به.

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه " والذي نفس محمد بيده لو أن أحدًا أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " فإن ذلك إنما كان لأن كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو - في النهاية - يصب في تيار المستقبلية والموضوعية.

(9) انظر الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للشيخ الوالد رحمه الله ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٧ وقد أورد البخاري في خلق أفعال العباد رواية عن أبي جمعة بالمعنى نفسه.

## الركائز الثلاث لدعوة الإحياء الإسلامي القرآن - الإنسان - الزمان

تقوم دعوة الإحياء الإسلامي على ثلاث ركائز هي القرآن - باعتباره المنبع، والإنسان باعتباره المصب ثم الزمان باعتباره الإطار الذي يحيط بالدعوة، ويتفاعل معها ويضفي عليها ضروراته.

### أولاً: القرآن:

قد لا يعد أمراً فيه جدة أو إبداع أن تجعل دعوة الإحياء الإسلامي القرآن - ركيزتها الأولى، فكل الدعوات الإسلامية تفعل هذا، وقد قالها الإخوان المسلمون من قبل - بأبلغ وأجزها عبارة " القرآن دستورنا ". ولكن الفرق الحاسم بين دعوة الإحياء وبقية الدعوات الإسلامية هو في فهم القرآن، هذا الفهم الذي لم يخطر ببال الدعوات الإسلامية ولم تتصوره.

فالدعوات الإسلامية تفهم القرآن عبر التفاسير المعتمدة (الطبري - القرطبي - ابن كثير - الرازي إلخ..). في حين أن دعوة الإحياء ترفض الالتزام بها تماماً، كما ترفض ما جاء به السلف من " علوم القرآن " مثل النسخ وأسباب النزول<sup>(10)</sup>.

وسلكوا مسلك الأمم الغابرة من كتبهم المقدسة، رغم تحذير الرسول واليوم تنفذ دعوة الإحياء الإسلامي القرآن من هذه الغشاوات والإضافات والإسقاطات التي حجب نوره ليشرق من جديد وليهدي الأبصار، ويحرر الأذهان.

\*\*\*

إن دعوة الإحياء الإسلامي تستشف بالقراءة المتكررة للقرآن الكريم وما تخلفه هذه القراءة من انطباعات روح القرآن والمضامين الرئيسية التي تنطوي عليها سورة وآياته.. فالقرآن الكريم أولاً إرادة تغيير كاسحة لم تعرف البشرية لها مثيلاً بحيث لا يكون من المبالغة القول إن الثورة التي أحدثها القرآن كانت أعظم ثورة جماهيرية في التاريخ لا يستثنى من ذلك ثورة اليهودية وإنقاذها بني إسرائيل من الاستغلال الفرعوني وثورته المسيحية وتحريها للمستضعفين في الأرض من الطغيان الروماني، إذ اجتمع لثورة الإسلام من عناصر الكمال ما لم يكتمل لهذين.

قبل الإسلام كان العرب يعبدون أوثاناً لا تنفع ولا تضر ويقدمون الأعراف والعادات التي تركها لهم آبائهم وتقوم حياتهم على السلب والنهب آونة وشرب الخمر ولعب الميسر آونة أخرى فندد القرآن بهم، وبآبائهم ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا آبَائُهُمْ لَّا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ

(10) نقصد بأسباب النزول هنا ما تورده الكتب التقليدية ككتب السيوطي وغيره التي تورده أسباباً للنزول بناء على أحاديث أغلبها موضوعة ولكن يمكن الاستثناء بملابسات النزول التي توردها الوقائع الثابتة كما هو الشأن في بعض الآيات التي سمحت بالقتال رداً على العدوان أو درءاً للفتنة؟



مُبِينٌ ﴿ وجههم نحو عبادة الله الخالق بديع السماوات والأرض الرحمن الرحيم إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، وله المثل الأعلى والأسماء الحسنى، وما ترمز إليه من رحمة وعدل وصدق ووفاء وحرية، وعمق معنى العدل بكل الطرق وندد بالظلم والطغيان.

وعرف القرآن المجتمع الجاهلي على أمر لم يكن له به معرفة هو الإنسان الذي كرمه الله فجعله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة وسخر له ما في الأرض جميعاً بحيث إن هذا الإنسان تحمل " الأمانة " التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.

هذه المعاني: وأعني إرادة تغيير ما خلف الآباء والتدبير بإهمال العقل، والدعوة لتكريم الإنسان هي روح القرآن والمضامين الفعالة فيه.. وهي مما لا تشير إليها التفسيرات التقليدية ولا الدعوات الإسلامية، ولعلها لم تتعرف عليها وموقفهم منها لا يختلف عن موقف الجاهلية.

لقد أدى انشغال التفسيرات التقليدية بالإعجاز البياني وتأثرها بالإسرائيليات والأحاديث الموضوعية والأبيات الشعرية المنحولة إلى عدم تبين القسّمات التي بدونها لا يمكن فهم طبيعة وروح القرآن.

ففي القرآن الكريم إيماءات وإيحاءات تتطلق بسرعة البرق أو كلمح البصر - من الخاص إلى العام، ومن الواقع إلى الواجب، ومن الحاضر إلى المستقبل، وهناك من الألفاظ ما يقبل العديد من المعاني دون ابتسار أو تطويع، بحيث يمكن إعمال تفسيرات عديدة، كل واحد في وقت معين، أو بالنسبة لمكان معين، بحيث يكون القرآن الكريم مرجعاً لكل الناس في كل العصور، ونحن لم نجد صعوبة في تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة (وهي آية الدين - أطول آيات القرآن) تفسيراً نقابياً يجعلها أصلاً للاتفاقيات الجماعية (11) مع أن مثل هذا التفسير ما كان يمكن أن يخطر لمفسر في العصر القديم لأن الاتفاقيات الجماعية لم تظهر في العالم إلا في منتصف القرن التاسع عشر عندما استطاع العمال البريطانيون والأمريكيون تكوين نقابات قوية تستطيع إبرام اتفاقيات أو عقود جماعية مع الشركات وأصحاب الأعمال. كما أن كلمة تظلمون الثانية في الآية ﴿ فَلَكمُ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظلمُونَ وَلا تُظلمُونَ ﴾ تفسح المجال لتفسيرها بأن تكون قيمة الدين هي القيمة الحقيقية - وليست الاسمية - للنقود وهي التي تهبط نتيجة للتضخم وبهذا تحل مشكلة الربا على أساس عادل ومعقول، كما قال القرآن أربعة كلمات لحل مشكلة الرق.. " فأما منّا بعد، وإما فداء "، وبهذا يمكن سد منبع الرق، أما القائم بالفعل فيمكن سده أيضاً من القرآن بالاستجابة لطلب المكاتب. ولكي يبرهن القرآن على وجود الله، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ﴾ وهي أقوى من أي منطق يمكن أن يأتي به أرسطو، ولو فسر أحد اليساريين الآية ﴿ الَّذِي أَطعمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ بأن الدين هو "الخبز والحرية" لما كان متجنباً لأن "أطعمهم" إشارة صريحة إلى الخبز، ولأن "آمنهم من الخوف" لا يمكن أن يتحقق إلا بالحرية، ففي المجتمعات العريقة في الحرية ينام المواطن ملء عينيه دون أن يخطر بباله أن يدهمه زائر الفجر.

وهل كان أحد في العصر القديم يدرك أن تعبير "بلى قادرين على أن نسوى بنانه" ليس له من تفسير يبين الإعجاز إلا ما أظهره العلم الحديث من تفرد كل بنان لكل واحد ببصمة متميزة لا تشبه ملايين البصمات.

(11) انظر الإسلام والحركة النقابية - جمال البنا ص ٨٢ - ٨٥.

أما الإعجاز العلمي والإعجاز العددي وما تلهمه أوائل بعض السور فهذا ما أوحى إلى لفيق من العلماء بإصدار مئات الكتب ولو استبعدنا معظمها، فإن الباقي يكفي لتأكيد صحة ما ذهبنا إليه من أن اللفظة القرآنية أشبه ببويضة مخصبة. لا يعلم أحد ما فيها حتى يأتي الوقت المناسب ليظهر معنى جديد خفي على السابقين. ولعل عمر بن الخطاب وقف هذا الموقف عندما قال عما قد لا يفهمه من ألفاظ في القرآن "دعوا لخالفها" وما جعله لا يأسى لجهله معنى "أبا" في "وفاكهة وأبا" فهناك من الألفاظ ما قد يعجز جيل عن أن يدركها لأن فهمها لن يتأتى إلا لجيل لاحق.

ومثل هذا ما يقال عن أن القرآن حمال، ذو وجوه، وأنه يمكن أن يتضمن حكماً كما يتضمن نقيضه ويمكن أن يفهم منه واحد ما لا يفهمه واحد آخر. فهذا كله من مزايا القرآن. لأنه يفسح المجال للتعددية. فالقرآن لا يريد أن يوقف الناس على مثل حد السيف وهو يفسح لهم الأخذ بهذا أو ذاك، فالإسلام منزل لكل الشعوب في كل الأزمان، وحتى في المجتمع الواحد فإن هذا يثير الفكر ويحرك الحزائم وفي النهاية يذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وظن بعض الساذجين أو المغرضين خاصة من المستشرقين أن وجود آيات في القرآن تتفق مع بعض ما جاء في العهد القديم أو الأناجيل يثبت أن الرسول نقل في القرآن هذه المعلومات عن طريق اتصاله ببعض اليهود أو المسيحيين. وفاتهم ما قرره القرآن من أن الدين أصلاً واحداً، ولذلك لا يستتكر أن يأتي القرآن ببعض ما جاء في الكتب السابقة، بل إن القرآن نص ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وأن كل الأنبياء كانوا مسلمين بنوع ما. فضلاً عن أن من المسلم به أن اتفاق بعض المعلومات في كتب مختلفة يمكن أن يعود إلى أسباب غير النقل فالحكم بأن ما جاء في القرآن منقول عن العهد القديم أو الأناجيل هو لزوم ما لا يلزم، فضلاً عن أن هناك اختلافات عديدة في التفاصيل ما بين القرآن والأناجيل والعهد القديم وليست القضية إيراد بعض معلومات كانت معروفة بين المعنيين.. ولكن العرض الخاص والمميز لها في القرآن بما يتسق مع السياق القرآني والأصول الإسلامية.

ولم يفهم البعض أن توجد آيات تعرض قتالاً وأخرى توجب سلاماً في حين أن الحرب والسلام لا يبد وأن يعرضاً للمجتمع. فقد حورب الإسلام بقوة وشراسة تتطلب المقابلة بالحرب فتأتي الآية "وقاتلوهم" ولكن عندما لا يحارب الإسلام فتطبق الآية ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة ٨)

وقد توجد آيات تعد بثواب جزيل وتأتي آيات أخرى تحذر من عذاب وبيل، وكان لا بد من هذا لأن النفوس تتفاوت.

وكما قال شوقي..

ومن العقول جداول وجلامد ومن القلوب حرائر وإماء

وصاحب الطبع الجاف والقلب الغليظ يحتاج إلى هذه القوارع التي تجلده وتجعله يتأثر بينما تكون آيات الصبح والسماح واللين والمغفرة لذوي المشاعر النبيلة كالنسمة الرقيقة.

ولو أن القرآن اقتصر على واحدة لما أثر ذلك على فئات عديدة من الناس موجودة بالفعل سواء أحببنا ذلك أو كرهناه ولا تزال فكرة الثواب والعقاب - رغم ما يوجه لها من نقد هي أكبر ما يؤثر في النفس البشرية وما يضبط سير المجتمع.

وقد يذكر البعض دفاعاً عن " الحسد أو الجن " أن القرآن ذكرهما، ولكن ذكر القرآن لوجودهما لا يعني أن لهما الآثار التي ينسبها الناس إليهما خاصة وقد قرر القرآن أن لا شيء يمكن أن يؤثر أو يحول السنن، أي الأصول والأسس التي وضعها الله تعالى للمجتمع أو الكون.

وكررت أستاذة في جامعة الأزهر بصدد الدفاع عن تفضيل الرجال على النساء أن القرآن قال: "وليس الذكر كالأنثى" وفاتها أن القرآن أورد هذا القول على لسان مريم التي كانت تعبر عن فكرة اليهود وتفضيلهم الأبناء على البنات. واستشهد آخر مبرهنًا على كيد النساء أن القرآن قال "إن كيدهن عظيم" ولكن هذا إنما كان كلام أحد حاشية فرعون. فلا يحسب على القرآن في شيء..

ومن الممارسات المرفوضة أن ينتزع بعض الناس آية أو جزءاً من آية من سياقها ثم يستدل بها أو يستنبط منها حكماً لأن السياق في القرآن هو الذي يحكم المعنى وقد يتضمن ما قبل الفقرة المنتزعة ما لا يجعلها حكماً أو يرتفق عليها باستثناء أو غيره. ولهذا فيجب لمن يريد الاستشهاد أن يأتي بأية أو اثنتين قبل الآية التي يستشهد بها وكذلك آية أو اثنتين بعدها وبذلك يستبعد الالتباس.

ولا يمس قداسة القرآن في شيء أن تتضمن بعض آياته أحكاماً خاصة بالمجتمع العربي في القرن السابع الميلادي تعالج جوانب مما كان قائماً وقتئذ، فلما جاوز التطور هذه الجوانب طويت الأحكام التي أصدرها القرآن عنها. فهذا أمر لم يكن منه مناص إذ لم يكن القرآن ليتجاهل هذه الجوانب وهي تؤثر في حياة المجتمع تأثيراً بالغاً. فلم يكن للدولة بحكم التكوين القبلي للمجتمع العربي - جيش محترف تكون مهمته القتال ويتقاضى أجوراً - وإنما كان الجيش يقوم على متطوعين وكانوا يجدون فيما يغنمون من سلاح وعتاد من أعدائهم ما يقنعهم، وقد انتقت هذه الصورة فظهر الجيش المحترف الذي يأخذ مرتبات، وبالتالي لم تعد للغنيمة مكان. فطويت الآيات التي جاءت في القرآن الكريم عن الغنائم، ولعل مثال الرق أكثر دلالة، فقد وضع القرآن الكريم مبدأ "فإما منا بعد وإما فداء" وطبقه الرسول، ولكن ظروف المجتمع لم تسمح بتطبيقه وقتئذ، وعندما هيأت التطورات المناخ للقضاء عليه نفذت الآية ﴿فَأِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

ولما رأى عمر بن الخطاب أن سهم "المؤلفة قلوبهم" لم يعد له مكان بعد انتصار الإسلام، لم يتردد في إيقافه رغم النص عليه في القرآن كما جعل الطلاق مرة واحدة لما رأى الناس وقد أساءوا استخدام سلطاتهم، مع أن الآية صريحة "الطلاق مرتان".

وقل مثل ذلك التوقف عن تطبيق الحدود في الغزو أو في المجاعات إلخ..

وهذه السوابق توضح لنا أن الصحابة لم يكونوا جامدين، مغلقى الفهم أمام القرآن، ولعلهم تذكروا أن القرآن نفسه قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

\*\*\*

لقد كان مفتاح الفهم السلفي للقرآن الكريم أنه كتاب أدب، ولهذا صال المفسرون وجالوا في الإعجاز البياني، والحقيقة أن القرآن كتاب فن وأن معجزته العظمى هي تسخير اللغة والألفاظ لخدمة الفن بحيث تكون

تصويراً فنياً آونة أو نظماً موسيقياً آونة أخرى أو معالجة نفسية للمشاعر والوجدان، ولهذا كان القرآن أعظم كتاب فني وهو ينتظر الموسيقى الذي يدرسه ليكشف أسرار الإعجاز الموسيقي فيه وقد كان الإعجاز الفني في القرآن يكفي لإحداث الهزة النفسية بمجرد سماعه. وهذه هي الخصيصة التي يتسم بها الفن. فمجرد سماع إحدى سيمفونيات بيتهوفن أو مشاهدة إحدى روائع رافائيل ومايكل أنجلو ودافنشي يحدث هزة نفسية بقدر روعة وإعجاز الفن (12) وقد قال القرآن: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢١ الحشر).

وقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١٠٧ - ١٠٨ الإسراء).

وهذه الحقيقة هامة جداً، لأنها تثبت أن القرآن وحده، وبحكم نظمه ومعانيه يغزو النفس البشرية، ويخترقها ويهيئها للإيمان، والوقائع التاريخية في بدء النبوة تثبت ذلك وحادثة الوليد بن المغيرة الذي جاء ليثني الرسول عن دعوته فأسمعه الرسول آيات من سورة فصلت.. فامتقع وعاد "بغير الوجه الذي ذهب به" ونصح كبراء قريش بأن يكفوا عن الرسول وقال هؤلاء: "لقد سحرك محمد.. " وقالت عائشة في إحدى كلماتها النافذة "فتحت المدينة بالقرآن" وكان هذا هو الفتح الأعظم، والذي حقق فيما بعد انتصار بدر. وهذا التأثير هو مما لا يأتي مطلقاً للتفسير التي تهدر أثر الإعجاز الفني في الوقت الذي لا تأتي بجديد يماثله، وإنما تنتقل الأقوال والحواديت واختلافات المذهبيين واللغويين إلخ..

\*\*\*

## ثانياً: الإنسان

أشرنا في الفقرة السابقة كيف أن القرآن الكريم عرف الجاهلية على صورة للإنسان تختلف اختلافاً حاسماً عن الصورة القبلية المغلقة المحكومة بالأعراف. فقد تحدث عن الإنسان كاسم جنس "يا بني آدم" وربطه بالله تعالى الذي خلقه في أحسن تقويم وكرمه أعظم تكريم وجعله خليفة في الأرض وعلمه الأسماء كلها وأسجد له

(12) إن لدينا شواهد عديدة توضح الانفعال التلقائي بالفنون فعندما سمع الموسيقار محمد عبد الوهاب لأول مرة ألحان سيد درويش امتلأت نفسه بشحنة عاطفية جعلته يجري حتى بلغ باب الحديد قبل أن تنفد هذه الشحنة. وعندما توغلت قوات الحملة الفرنسية في صعيد مصر وجاس جنودها خلال القرى والكفور والوحد والقنوات والهوام والحشرات وصلوا في الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٧ يناير إلى منحنى النهر فطالعهم على جانبي النهر مشهد طيبة القديمة كاملاً بما احتوته من معابد في الأقصر والكرنك. فوقفت الفرقة كلها من تلقاء نفسها، ودون أن يصدر أمر لهم. وقفوا في طوابيرهم وأدوا التحية العسكرية على قرع الطبول وعزف الموسيقى وقال رسام الحملة "دينون" كنت على الدوام مبتسماً مريضاً ولكن دندرة أبرأتني، فما رأيته اليوم عوضني عن كل تعاستي وأنا لا أبالي اليوم ما يحدث لي فيما بقي من هذه الحملة. وسأظل أبداً سعيداً بأنني انخرطت في صفوفه - انظر كتاب بونابرت في مصر تأليف ج كريستوفر هيرولد ترجمة فؤاد اندرواس ص ٣٤٣ ومعروف جيداً ما يحدثه في نفس العاشق رؤية حبيبته وقد يجمده في مكانه" وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متقدم عنه ولا متأخر إلخ..

الملائكة وسخر له قوى الطبيعة بحيث استطاع هذا الإنسان أن يتحمل "الأمانة" التي عجزت عن حملها وأشفقن منها السماوات والأرض.

وكان هناك معنى أعلنه القرآن حيناً وتضمنه السياق حيناً آخر ذلك هو أن الله تعالى أنزل القرآن للإنسان ولم ينزل للإنسان للقرآن. فالقرآن بكل قداسته ليس إلا الوسيلة التي أوحى بها الله تعالى لتحقيق غاية هي هداية الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور.

لهذا فإن الإنسان في أصل كل توجيهات القرآن وهو محور الخطاب القرآني، وإذا كان القرآن هو المنبع فإن الإنسان هو المصب..

وليس شرطاً أن يكون الصحابة قد تبينوا هذه الحقائق بالصورة التي نعرضها، والتي لم نتوصل نحن أنفسنا إليها إلا بفضل الثقافات والمعارف الحديثة، ولكن هذه المعاني نفسها انطبعت في نفوسهم واستشفوها، بحكم تلاوتهم للقرآن واستماعهم له ثم ضربت ممارسات الرسول الذي كان "خلقه القرآن" لهم المثل وما يكون عليه تطبيق توجيهات القرآن.

فالقرآن الكريم قدس الحياة الإنسانية ونهى عن قتل الإنسان إلا إذا قتل آخر عامداً متعمداً، وإن كان قد فتح الباب لإحلال الذية أو الصفح محل القصاص.

وأراد القرآن أن يجفف منابع الرق، فحصرها في منبع واحد هو أسرى الحرب بين المسلمين والمشركين ثم جعل مصير هؤلاء الأسرى " فإما منا بعد، وإما فداء" وحتى يتم هذا فقد جعل القرآن "عتق رقبة" كفارة للكثير من الذنوب، وجاء الرسول فطبق هذا في غزواته فأعتق أسراها وزاد في الكفارات وفي الوقت نفسه، حرر الرق من أسوأ ما فيه، وهو المعاملة الوحشية التي كان العبيد يلاقونها - إلى الدرجة التي اعتبر فيها ضرب السيد لعبد أو صفعه أمراً يوجب عتقه. ولدينا ثلاث حالات لذلك مما سجله التاريخ - جارية أبناء مقرن - عبد أبي مسعود - عبيد من استفتى الرسول في ضربه إياهم مما دفعه لتحريرهم (13).

وساوى الإسلام ما بين الرجال والنساء ولم يفضل القرآن الرجال على النساء أو النساء على الرجال وإنما قال: ﴿وَلَا تَمْتَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَإِسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أما درجة القوامة فهي مسئولية رعاية المرأة في وقت ما كان يمكن للنساء أن يقمن بها، وأحاط الرسول النساء بكرامة خاصة وقال الرسول أنه لو كان مفضلاً أحداً لفضل النساء، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات إلى آخر ما هو معروف وما كان موضوعاً لعدد كبير من الكتب.

واعتبر الإسلام "بني آدم" سواء لا تفصل بينهم حواجز اللون أو العنصر أو اللغة إلخ.. وأي شيء أجمل من الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فانظر إلى الإعجاز الذي جعل هذه الكلمات الموجزة تستبعد الفروق العرقية وتساوي بين الذكر والأنثى وتجعل الأفضلية للنقوى. وتأمّر بالتعارف بين الشعوب بعضها بعضاً.

وفي المجتمع الإسلامي أيام الرسول كان صهيب الرومي، وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، كما كان العبيد الذي حررهم أبو بكر وغيرهم يكونون جميعاً أسرة واحدة يعاملون جميعاً على قدم المساواة ولا

(13) انظر تفصيل ذلك في " نحو فقه جديد " - جمال البنا ح ٣ ص ٢٦

يتفاضلون إلا بالعمل والتقوى إلى درجة تمنى فيها عمر "لو كان سالم (وهو مولى أبي حذيفة) حيًا لأوصى له بالخلافة. وعندما طعن في المسجد أمر صهيب بأن يؤم الناس.

ويعرض القرآن الكريم الإنسان كما خلقه الله بضعفه وقوته بفجوره وتقواه وتحديث عن الضعف البشري.. **﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾** وقد بدأ هذا الضعف في آدم ثم تطرق إلى البشر عامة، بما في ذلك الأنبياء أنفسهم فيما لم يكفوا بتبليغه فقال عن آدم: **﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾** وعن سليمان: **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾** وقال عن يوسف: **﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي﴾** وروى عن موسى: **﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾** وقال عن ذي النون: **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** وقال عن محمد ﷺ: **﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾** **﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾** (14).

ولم ينف القرآن وهو بصدد الحديث عن المؤمنين احتمال وقوعهم في خطأ أو استسلامهم لضعف. وقد رضي منهم أن لا يقعوا في **﴿كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾** دون اللطم الذي قال عنه أبو هريرة إنه كل ما دون الجماع وافترض سياق الآية وقوعهم فيها، ووعد القرآن المؤمنين بأن يكفر عنهم سيئاتهم عند التقوى والإنابة وقال النبي ﷺ " كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون.

وقال "أيها الناس إنكم لن تفعلوا ولن تطيقوا كل ما أمرتم به، ولكن سددوا وبشروا "

وصور لنا القرآن أثر الوازع المادي، وهو يقرن الأموال بالأولاد، بل هو يقدم الأموال على الأولاد. ويشير في أكثر من سورة إلى حب المال الذي يمتلك قلب الإنسان "إنه لحب الخير لشديد" "ولا تحبون المال حبًا جماً" ويلمس الضراوة التي يثيرها في النفس جمع المال واكتنازه وما يخالجه من اعتزاز وإسراف وطغيان، **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾** "أَنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَى" وكيف يلهي المال الناس عن كل شيء حتى تقاجئهم القبور **﴿إِلْهَامُ التَّكَاثُرِ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾** وهو يبدي ملاحظة دقيقة: أن إحساس الغنى المفرط بثروته واعتزازه بماله. واعتقاده بقوته السحرية يصل إلى الدرجة التي يعتقد فيها أن المال سيهبه الخلود. وسيقر به إلى الله. وسيعفيه من السؤال والعقاب الذي يطبق على الفقراء، بل يعفيه من المسؤولية كلها **﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾** **﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**.

إن القرآن الكريم وإن كان يندد أشد تنديد بهذه النماذج من الناس، فإنه في الوقت نفسه يقرر أنهم موجودون، ولا يوجب عقوبة دنيوية عليهم باستثناء ما أمر به من زكاة وما أوصى به من إنفاق.

والحق أن هذا هو جزء من الخط الرئيسي الذي يضعه القرآن أمام "الضعف البشري" الذي يدفع البعض لتفضيل الدنيا على الآخرة - فهو يعترف بوجودهم وأن الله تعالى لا يحرمهم، بل هو يعجل لهم **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾** (الإسراء ١٨ - ٢٠).

(14) لا تجهل بالطبع ما تقوله التفاسير، ولكن يأبي السياق ذلك.

وهو كذلك يتحدث عن المؤمنين الذين يغلبهم الضعف في بعض الحالات فيرتكبون فاحشة فإذا استغفروا غفر الله لهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران - ١٣٥).

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى - ٣٧).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ (الأحقاف - ١٦)

ففي هذه الآيات جميعاً نجد النهي عن "كبائر الإثم والفواحش" أما ما هو دون ذلك فإن الله تعالى يتجاوز عنه، وما يزيد عن ذلك يجبه الاستغفار والتوبة.

هذا التصوير من القرآن للإنسان لابد وأن يؤدي إلى وجود "تعددية" ولا بد أن تتجلى عواطف هذا الإنسان ومشاعره في فنون وآداب "يمكن أن تشبع ميله الغريزي من غناء أو رقص أو موسيقى إلخ.. ولا يعد مع هذا خارجاً عن الإطار الذي وضعه القرآن للإنسان.

ولكن صورة "الإنسان القرآني" لا توجد في التراث الفقهي أو الدعوات الإسلامية التي أبدعت إنسانها الخاص بها "الإنسان الفقهي" إذا جاز التعبير، كم أبدع الرأسماليون "الإنسان الاقتصادي" الذي لا يعمل أو يتحرك إلا بوازع الربح، والإنسان الفقهي يختلف تماماً عن الإنسان القرآني، فهو الإنسان الذي أسلم أمره للفقهاء، فملئوا نفسه رعباً وذعراً من الإثم والذنوب وجعلوا هاجسه الأول هو كيف يتقي الوقوع فيها فهو قبل أن يقدم على شيء أو يتخذ قراراً يستفتى ويتأكد من سلامة و "حلية" هذا الإجراء وأعانه الفقهاء على هذا بإقامة سد عال يحول بينه وبين كل ما يظن فيه أو يشتم منه الحرمة بقاعدة سد الذرائع وهي "صوبة" يترعرع في ظلها الإنسان الفقهي ولكن ما أن ترفع عنه حتى يذهب به عصف الرياح وأشعة الشمس.

وواضح تماماً أن هذه السياسة تتناقض سياسة القرآن التي أوردنا الشواهد عليها من الآيات العديدة كما تخالف سياسة الرسول الذي ارتأى أن الصلاة تجب السيئات، وقال كتب على بني آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناهما البطش والرجل زناها الخطي، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه "رواه البخاري مختصراً ورمز له صاحب فيض القدير بالصحة ودعوة الإحياء الإسلامي تأخذ الإنسان كما صوره القرآن والرسول لا كما أراد له الفقهاء - وبالتالي فإنها ترى في شتى مظاهر الحرية التي يمارسها الإنسان أمراً مقررًا، وطبيعياً وهي لا تدين هذه الحرية لأن الإسلام جعل التعامل معها رهن بصاحبها فإذا كان فيها ما يظن به مخالفة للإسلام فقد يستغفر، أو يتوب وستجب التوبة والاستغفار ما يظن أنه يجاف آداب الإسلام كما قد يصر عليه ويمضي على غلوائه، وفي هذه الحالة فإن الله تعالى سيتولى محاسبته يوم الحساب وليس هناك ما هو أصرح ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء ١٨) والقرآن لم يحدد عقوبة على ما ينزلق إليه الضعف ولكن على الشر كالسرقة والظلم، أو إذا اشتط الضعف البشري بصاحبه إلى الاغتصاب - وهي الموبقة العظمى.

والهدف من هذا هو تحرير الإنسان من وصاية تحكم الآخرين الذين لا يسيغون ما يقوم به البعض فينصبون أنفسهم قضاة، وإذا سمح بمثل هذا فلن توجد حرية في المجتمع، ولا كرامة للفرد، فلنترك ما لا نوافق عليه لأصاحبه، ونعرف أن له حقاً، كما أن لنا حقنا في انتهاج ما نريد، وسيحاسبنا الله جميعاً يوم القيامة، فضلاً عن أن المسلك السلبي المجتمع سيسهم في الحكم على التصرفات لأنه عندما يعزف عن

تصرف ما، فإن هذا سيؤدي إلى انحسار هذا التصرف، وهذا العزوف السلبي حق للرد لا يمكن أن ينكره عليه أحد وهو يكفي وحده للحكم على التصرفات ووجوه النشاط التي يقوم بها البعض.

ومرة أخرى فإن الحكمة التي قد تدق على مدارك الذين يعطون أنفسهم سلطة التحريم والتحليل هي أن إطلاق حريات الأفراد وإفساح المجال للمبادئات سيؤدي إلى فتح آفاق جديدة أمام المجتمع ولا جدال في أن القرآن والرسول أدركا هذا في حين أنه دق على الفقهاء.

ومن هنا، فيجب ألا نتصور أن المجتمع الإسلامي لا بد وأن يبرأ من وقوع ما يجاوز الآداب الإسلامية. فما دام هناك إنسان، فلا بد أن يظهر شيء من فجور هذا الإنسان - أو ابتغائه حرث الدنيا - وقد وكل الله الحكم فيها إليه يوم الأخيرة وليس هذا إلا نتيجة منطقية لطبيعة كما خلقه الله، ولو لم توجد هذه التجاوزات ففيم تحدث التوبة والاستغفار؟ ولمن يوجه "النهى عن المنكر"؟ إن مجرد الوجود والحدوث يجب أن يعد أمرًا طبيعيًا ومنطقيًا، وليس معنى هذا الاستسلام له ولكن مجابته بالحكم والموعظة الحسنة، وكل واحد ميسر لما خلق له.. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى.﴾

### ثالثًا: الزمان:

في الزمان يصل تجاهل الدعوات الإسلامية إلى غايته، لأن عاملين تضافرا على ذلك. العامل الأول العاطفية التي تجعل الدعوات الإسلامية ماضوية حتى النخاع، تتمنى لو ترد إلى أحد القرون الثلاثة التي قيل عنها إنها أفضل القرون.

والعامل الثاني غلبة النظرية والنصوصية عليها، وهي بطبيعتها جامدة، مجردة، فمرور ألف عام وتطور أساليب الحياة تطورًا مذهلاً لا يعني شيئاً من قريب أو بعيد بالنسبة لما قرره الفقهاء واكتسب منزلة النص المقدس..

وأدى تضافر هذين العاملين لأن يندمج في الدعوة الإسلامية الإحساس بالزمان فأتباعها يعيشون هذا العصر يستخدمون مبتكراته من السيارات والطائرات والتليفون والتليفزيون كأنما خلقت كالخيل والبغال والحمير. فهم موجودون بحكم ميلادهم في هذا العصر، ولكنهم لا يعيشون العصر، أو يتفاعلون معه لأن روحهم ومثلهم وخيالاتهم في الماضي البعيد.

ولا ينفي هذا أن يوجد بين أعضاء بعض الدعوات الإسلامية أطباء بارزون ومهندسون حاذقون إلخ.. فهؤلاء ينتقون مهنتهم إتقاناً فنيًا، ولديهم الأمانة والخلق، ولكنهم إذا جاوزوا دائرة تخصصهم المهني تاهوا وحتى لا يحدث هذا أقامت الدعوات الإسلامية حولهم سورًا يفصل بينهم وبين عالم العصر، فعاشوا داخل هذا السور آمنين مطمئنين بعيدين عن معمعة الحياة وغمرات الدنيا، ولا يفكر واحد منهم في أن يحقق اكتشافًا أو اختراعًا رغم أن لدى بعضهم التأسيس الفني الذي يسمح بالانطلاق لو وجدت الروح ولكن هذه الروح لا توجد. إذ وراء كل اكتشاف أو اختراع طموح وطلعة ورغبة في إثراء الحياة وهذه كلها غير موجودة لديهم.

ومن هنا فلم نجد العالم المسلم الذي يقدم إضافة منشئة في علوم الطبيعة والكيمياء والطب والهندسة رغم أن الكثيرين ممن يعملون في هذه المجالات، ويحكمونها فنيًا ومهنيًا ممن انضم إلى الإخوان المسلمين عندما كانوا طلابًا في الجامعة وحافظوا على عضويتهم فيها وكانوا من أبرز أعضائها، وهذه هي جناية التكييف



الدَّعْوَى والفقهى على عقليتهم التي جعلتهم مهنيين أكفاء أمناء، وفي الوقت نفسه طمست ملكة الطموح والإبداع والابتكار والتوق إلى الجديد.

إن الزمان هو أبرز أبعاد الحياة، فلا يمكن تصور الحياة إلا في إطار الزمان وتوالي الشهور والأعوام هو الذي يجعل من الطفل الذي يحبوا على أربع صبيًا ثم شابًا ثم رجلاً مكتمل الرجولة ثم يبدأ سلم النزول فيعلوه الشيب ويبلغ أرذل العمر، ولو جاز أن يقف الزمان بالطفل وهو يحبوا. لما أمكن له أن ينمو ويصبح بعد بضعة سنوات صبي ثم شابًا ثم شيخًا إلخ..

إن هذا لا يحدث. لأن الزمان لا يتوق ولن يتوقف إلا عندما تنتهي هذه الحياة الدنيا، ومع هذا فإن من لم يعايش الزمان ويتفاعل معه - يمكن أن يظل نفسيًا وعقليًا في طفولة وأمية حتى وإن بلغ الثلاثين فقد نما الجسم بفعل الزمان بينما وقف الفكر؛ لأنه لم يزود بمعارف العصر..

ويعبر القرآن الكريم عن أهمية الزمان عندما ينسب الشعوب القديمة إلى قرونها فيقول:

- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (١٣ يونس)
- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ﴾ (١١٦ هود)
- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ (١٧ الإسراء)
- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (٥١ طه)

وأمثال هذه الآيات كثيرة وعديدة

وقد وضع الإسلام تقسيمًا موقوتًا لليوم عندما جعل الصلوات خمسًا كل واحدة تبدأ مع مرحلة معينة بدءًا من الفجر.. حتى غروب الشمس وكان تلك الصلوات هي ساعة الجماهير قبل أن تخترع الساعة وكان يمكن التوصل إلى درجة معقولة من دقة التوقيت بفضلها؛ لأن هذه الصلوات الخمس تنتظم اليوم.

وزماننا يعد زمن عجيب، فخلال القرون الثلاثة الأخيرة قفزت البشرية في الفكر، والعلم، والمادة قفزات لم يتصورها الإنسان إلا في مثل ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن. فقد تحدث هؤلاء عن حكماء يطيطرون.. وعن سحر يغير الطبائع. وعن علي بابا الذي ما إن يقول "افتح يا سمس" حتى يفتح بابا المغارة.. إن اختراعات العصر فاقت كل هذا، ولم يعد علي بابا بحاجة لأن يأمر.. لأن الباب سيفتح من تلقاء نفسه ما دام هو على خطوات منه.

لقد أعطى العصر الحديث للإنسان ما لم يؤتته إلا سليمان.. كمعجزة لا كممارسة.. وأدى إعمال العقل وانفاسح الزمان الحضارة لتصل من الشرق إلى الغرب في غمضة عين وأوجد تلك التحديات التي أشير إليها في "استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين" وأبرزها القوة الباهرة اقتصاديًا وعسكريًا نتيجة لاستخدام العلوم في الصناعة، والتقدم الاجتماعي القائم على الحرية..

في العصور القديمة كان العنصر الأكثر تأثيرًا في المجتمع هو "المكان" لأن الناس كانوا مربوطين إليه، وخاضعين له، فلا يستطيعون تركه لصعوبة وسائل الاتصال، ولعدم المعرفة بما وراءه كما لم تكن وسائل "تكييف الجو" أو تعبيد الطرق إلخ ميسرة فكان الناس تحت رحمة المكان، ولكن العصر الحديث غير هذه الصورة بحيث ظهر "الزمان" وما يمثله من تطور، واختراع واكتشاف وتيسير للمواصلات وإبداع لوسائل

تكيف إلخ.. بحيث فقد المكان أهميته، ثم جاء الطيران فأصبح الانتقال يتم في السماوات العُلا، وفوق السحاب، وظهرت الأقمار الصناعية والإذاعات المرئية والمسموعة التي لا يمكن لأي قوة حجبها فتلاشت الحدود، وأصبح العامل الأكثر أهمية وتأثيراً في حياة الناس هو الزمان، وخضع المكان لسطوة الزمان. فقد يكون شخص ما في أدغال خط الاستواء ومع هذا يكون بيته مكيفاً، وبه الثلاجة، وكل المعدات الحديثة وتأتي الطائرة لتنتقل صاحبه من حر خط الاستواء إلى جليد أوروبا وهكذا فقد المكان آثاره وأصبح الإنسان هو الإنسان " الزماني " وهو ما يوضح لنا جريمة تجاهل الزمان. فإن من يتجاهله ينفي نفسه من عالم العصر. ولم تكف الكرة الأرضية بأسرها همة أوروبا، فانطلقت تراود الفضاء وأرست سفنها على القمر بينما انطلقت الصواريخ تسير نحو الكواكب البعيدة الأخرى.

وليس في هذا كله ما يرفضه الإسلام. فهذا عمل ومعرفة وبحث وإقدام وكلها فضائل:

وقد يكون مما جعل المسلمين المعاصرين يعزفون عن التجاوب مع العصر الحديث أنه اقترن بالحضارة الأوروبية التي اتسمت بالشراسة والقسوة ونهبت العالم القديم واستعبدت سكانه وفرضت حكمها على أراضيه وارتكبت موبقات لا حصر لها، ومنذ أن ظهر الإسلام وقد نصبت نفسها عدو له..

ولا جدال في أن تاريخها السياسي والاقتصادي بالنسبة لدول آسيا وأفريقيا اتسم بالإجرام وكان سلسلة من الموبقات.

ونحن لا نبرئها، بل قد يأتي اليوم الذي نحاسبها وقد نطالبها بالتعويض أو الاعتذار.

ولكن ليس هذا هو المهم. المهم هو أن ندرس هذه الحضارة دراسة عميقة للتعرف على نقط القوة والإبداع فيها، وهي عديدة، ولنعرف أيضاً نقط القصور وبقدر ما تكون هذه الدراسة عميقة وموضوعية بقدر ما تزداد مكانتها، لأنها ستمكنها من الأخذ بنقط القوة وتفادي نقط القصور، أما أن نقف موقف التجاهل، أو أن نضخم في نقط الضعف ونضائل في نقط القوة فلن يكون إلا تغريراً ومغالطة تجني في النهاية على أصحابها.

ويجب أن نعلم أن الحضارة الأوروبية وإن كانت في أغلبيتها العظمى أوروبية، إلا أنها تضمنت آثاراً لبقية شعوب العالم فيها ولقد أثبت " برنال " في كتابه " أثينا السوداء " مدى التأثير الطاغى للحضارة المصرية القديمة على اليونان.

ونجد آثاراً للحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا في عهد " الرينسانس " طريق أسبانيا وصقلية وظلت كتابات العلماء المسلمين تدرس في أوروبا حتى القرن الخامس عشر والسادس عشر، وقد استفاد الأوروبيون منها أكثر مما استفاد بها أصحابها لأن أوروبا كانت متعطشة للمعرفة، وتوجد فيها " جيوب " حرة، بينما كان الشرق قد وقع في أيد الطغاة، والعلم لا يزدهر إلا في البيئة الحرة، وهي الصورة التي تتكرر الآن، فإن العلماء الأفريقيين والآسيويين يشغلون في معاهد البحوث الأوروبية والأمريكية مكاناً مرموقاً وتفيد منهم هذه الدول. وكانت دولهم أحق بهم لولا نظم الحكم الطاغية وانعدام الحريات.

ويجب أن يكون الإسلاميون هم السباقون في دراسة الأوروبية لأن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها، ويجب أن لا تلفتنا العداوات القديمة عن ذلك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا.. اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ولي لنا خيار بعد، لأن الحقيقة الواقعة التي تفرض نفسها علينا فرضاً هي أننا نعيش في عصر الحضارة الأوروبية، وفي غابتها أيضاً، وقد وصلت هذه الحضارة إلى ما لم تصل إلي أية حضارة أخرى في العالم القديم بما في ذلك الحضارة الرومانية في عهد أكتافيوس أو الحضارة الإسلامية في عهد هارون الرشيد. فقد زحفت على كل العالم بلا استثناء ووضعت النظم والطرق لحياة المجتمع الحديث من فنادق وخطوط طيران، وبناء المدن والبيوت والإضاءة والصرف الصحي وأصبح ما وضعته في هذا كله هو " المعيار " وهو ما لا تشذ عنه دولة. فسواء كنت في الصين أو أفريقيا أو آسيا أو حتى المدينة المنورة إلخ.. فستجد الفنادق على مثال هيلتون وشيراتون وحياء أجانس، وستتفكك طائرات بوينج وإيربس وستجد المطاعم التي تقدم الأطعمة الأوروبية مكتوبة بإحدى لغاتها. أما عن الفنون والآداب والسينما والمسارح وطرق الاستمتاع فحدث عنها ولا حرج..

وراء هذا كله عمل دائب في المناجم والمصانع، ودراسات عميقة في مراكز الأبحاث وجيوش جرارة من العمال، والباحثين يعكفون على كل شيء وملايين من العاملين في صمت يعملون لسير هذا المجتمع وضمان سلامته.

وقد تفجرت ثورة المعرفة بحيث أصبح يطبع في اليوم الواحد ٢٠٠٠ كتاب وتظهر كل سنة ٤٠ ألف كلمة علمية جديدة ومليون مقال علمي على صفحات ستين ألف مجلة متخصصة.

وظهر كومبيوتر يقوم بمليار و ٢٠٠ مليون عملية في الدقيقة، كما أصبح ممكناً تخزين ٢٧٥ ألف صفحة على سنتيمترين، وأمكن ملاحقة الزمن إلى درجة مليون من الثانية بفضل ما توصل إليه العالم المصري أحمد زويل.

ولا تزال " صوراخ " المعرفة منطلقاً من قواعدها (مراكز البحوث) في اليابان والولايات المتحدة وألمانيا وبقية دول العالم المتقدمة.

هذه الإنجازات كلها هي بعض ما تقدمه الحضارة الأوروبية متلبسة ثوب الزمان، وما يكون علينا ملاحظتها بقدر ما نستطيع إلا إذا قبلنا الدنيا أو أن نكون في وضع التبعية الذليل. ولن يثمر التجاهل إلا زيادة شقة التخلف وتدهور الوضع لأننا لا يمكن أن ننزل بأنفسنا ونحميها من آثاره التي تنتزل علينا من السماوات المفتوحة، وقد أراد لنا الإسلام العزة والمنعة والكرامة. ولن يتحقق لنا شيء من ذلك ما لم نطرح السلبية ونعمل لكي نعيش هذا التقدم العلمي المذهل بقدر ما نستطيع، حتى لو كرهناه فلم يعد لنا خيار.

وأما الفنون والآداب التي تأتي بها حضارة العصر فهي جانب من جوانب وفيها السامي والوضيع، ما يلمس أنبل المشاعر، وما يرضي أذلل الشهوات وقد فرضت نفسها علينا فرضاً مع ظهور القنوات الفضائية

وشيوخ البث المباشر من مختلف دول العالم على أنه لا يستطيع أحد أن يفرض على مسلم تقي مشاهدة فنون هابطة أو متحللة " وإذا كان التلفزيون يعرضها فإنه بلمسة يد يمكن أن يحول القناة إلى قناة تتلو القرآن أو تقدم المحاضرات. إما أن يطالب بالمنع والمصادرة ويستنزل اللعنات على أصحابها فليس هذا هو الحل الممكن ولا هو بالحل الأمثل. الحل الأمثل هو ما اهتدى إليه " سلامة القس " عندما قال:

**قد كنت أعزل في السفاهة أهلها فأعجب لما تأتي به الأيـام**

**فاليوم أعزهم وأعلم أنما سبيل الضلالة والهدى أقسام**

وليتأسى بالرسول الذي كان يرفض اللعن ويسأل الهداية.

## موقف دعوة الإحياء من بعض القضايا

إن الكلمات السابقة، سواء في استراتيجية الدعوة الإسلامية في القرن الواحد والعشرين، أو ما جاء خاصًا بالدعوة في فصول سابقة، أو لاحقة في الفصل التالي عن " مكتبة دعوة الإحياء " هذه كلها تعطي القارئ فكرة كافية إلى حد كبير عن نظرية الدعوة ومواقفها، ولكننا من باب التخصيص ولإراحة القارئ، فسنعرض هنا تحديدًا لموقف الدعوة من بعض القضايا في سطور قليلة دون شرح أو إسهاب، فليس هذا مجاله.

### ١ - الثوابت:

قضية الثوابت قضية هامة، لأن الكثيرين يعترفون بحرية فكر أو اجتهاد " إلا في الثبوت " فإذا سألنا عن الثوابت أتضح أنها سلسلة من المواضيع بعضها أخذ برقاب بعض بحيث تشمل الإسلام بأسره، وليس الثوابت هي:

بالنسبة لنا فإن الثوابت هي:

أ- ذات الله تعالى وطبيعته فهذه ما لا يمكن للعقل البشري أن يصل إليها، وأي محاولة لذلك تزج بالإنسان إلى غير طائل بل تسلمه إلى الضلال، ونحن نرفض مجرد التفكير فيها، ونأخذها كما عرضها القرآن ولا نلحق بها ما يضيفونه إليها من أحاديث أو من تأويلات خاصة لآيات الصفات التي مزقت المسلمين، وكان لهم عن هذا مندوحة فالقرآن الكريم تحدث عن اليد فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦ سبا)، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (٣١ سبا) فهل يمكن القول إن للعذاب يدًا، أو للقرآن يدًا لا تشبه أيدي الناس كما يقول الوهابيون.. وهذا أكبر دليل على خطأ الاجتهاد فيما يتعلق بالله تعالى فإن هذا الاجتهاد كاد أن يصلهم بالمجسمة. ومن الناحية المقابلة، فنحن نستبعد الأخذ بأسلوب علم الكلام للاستدلال على وجود الله أو إثبات صفاته، فهو أسلوب غريب على روح الإسلام لأنه يعود إلى روح فلسفات لا تؤمن بالله أصلاً، أو لا تؤمن به الإيمان الإسلامي ولذلك تصدر أحكامها على الله تعالى من منطلق فهمها الإنساني، وقد قلنا إن الفهم الإنساني يعجز عن الولوج إلى هذه المنطقة أصلاً، وقد تطرقت إلى علماء الكلام هذه النظرة دون أن يشعروا، وإلا فما معنى كلام كلمة الجويني، إن من المستحيل على الله " أن يريد ما لا يعلمه " فهل هناك شيء لا يعلمه الله والله يقول " إنه بكل شيء عليم " أو مما حكات الغزالي في " كن فيكون " وأمثالها فهذه كلها مما لا نعلق عليه أو نأبه له، لأن قدرة الله تعالى وعلمه مما لا يمكن أن تحيط بها العقول أو تدركه الأفهام فلا يمكننا الحكم عليها.

ولا نجد في قضية القضاء والقدر وجبر الإنسان أو اختياره أي مشكلة لأنها تتعلق بعلم الله الذي لا يستطيع أن نحده ونخطئ لو حكمنا عليه بعلمنا ولأن المشيئة الإلهية، وإن كانت مطلقة شاملة ودون قيد أو شرط، ومما لا يمكن أن نحيط بأقطارها، فإنه تعالى - بالنسبة للأرض والإنسان ولمجتمعه بلور مشيئته في سنن ومبادئ " كتبها على نفسه " بتعبير القرآن، وجعلها هي المناط في تسيير هذا الكون وليس هناك ما هو أصرح من الآية ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ " فقد ربط ما بين مشيئته ﴿والأجل " وكذلك ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا﴾

بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿ فربط مشيئته بتصريف القوم أولاً. وندد القرآن بالذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ .

وفي عديد من الآيات أوضح القرآن أن الله تعالى خلق في الإنسان عقلاً يميز بين الحسن والقبيح وأرسل إليه الأنبياء، وأنزل معهم الكتب المقدسة ليعرفه على الخير والشر، وليستكمل له ما يعجز العقل عنه، ومنحه إرادة حرة يختار بها ما يشاء وهو يشيبه إذا أحسن الاختيار، ويعاقبه إذا أساء. أما كيفية علاقة هذا بعلم الله تعالى السابقة وكيف تتلاءم الحرية مع علمه فهذا ما لا نشغل أنفسنا به، لأننا لا نحيط به.. فله تعالى قدرات وقوى إلخ.. أعظم بمراحل مما نتصور، وتختلف تماماً عما نعرفه.. وكل الانحرافات والتعسفات في العقيدة إنما جاءت من ما محاولة الحكم على الله تعالى بمقتضى الفهم الإنساني.. مع أنه تعالى قال: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ وأي محاولة للاختراق لا بد وأن تنتهي بالضلال والانحراف.

ب- يلحق بذات الله تعالى عالم الغيب، بدءاً من الموت حتى الدخول في جنة أو نار. فنحن نؤمن بها كما جاءت في القرآن، ولا نضيف عليها ما جاء في معظم الأحاديث لأن عالم الغيب هو مما استأثر الله به ومن ثم فلا يكون موضوعاً لأحاديث تعلن على الناس، ونحن لا نجهد أنفسنا في تحقيق تفاصيل ما جاء في القرآن عنه لأن ما أراده القرآن هو الانطباع العام، ولكننا لا نستبعد أن يكون معظم ما جاء عنه هو باب المجاز الذي يؤثره القرآن عند الحديث عن هذه المجالات ليتحقق الصدق الفني الذي يلجأ إليه لتكثيف المعنى كما نقول هو بحر في السخاء، وأسد في الشجاعة، وليس هو بحراً، ولا أسداً، ولكن رجلاً.. ولكننا ندع لكل واحد أن يفهم ما يطمئن إليه فؤاده دون محاجة، أو محاولة لحمل الآخرين على الأخذ به.

ج- القرآن الكريم، نؤمن بأن القرآن الكريم هو توجيه الله تعالى الذي أوحى به إلى الرسول، ونحن نقبله ونرى أنه الحق الذي لا يتطرق إليه باطل، ونستبعد كل ما حشيت به التفاسير وما أورده بعض الأسلاف من أقوال تحذف أو تضيف، كما نستبعد النسخ في القرآن ونرى أن كل من يمسك بآية فإنه يمسك بحجة طبقاً للسياق، ونستبعد أسباب النزول ولا نرى لها حاجة إلا التطفل على النص وإيجاد إحياءات مضللة رغم القول إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

ولا يعني تقديسنا للقرآن واعتباره من الثوابت أن لا نعمل الفكر فيه، لأن هذا هو ما يوجب القرآن نفسه علينا، والنظر في القرآن ككل هو ما يقربنا إلى روح القرآن ومضامينه العامة التي نستلهمها في وضع القواعد واستنباط الأحكام مما قد يجعلنا نُجمد نصاً لأن العلة التي وضع لأجلها انتهت وهو ما تنبه له عمر بن الخطاب في بعض اجتهاداته.

وبالطبع فنحن لا نعتبر تفسيرات المفسرين من الثوابت، بل نرى إنها شغلت الفكر بتفاصيل وحكايات ملفقة بعيدة عن اللب والجوهر في القرآن، وبهذا أساءت إليه وجنت عليه.

ونحن لا نعتبر أن من الثوابت أحكام المذاهب وأقوال الفقهاء، بل حتى أقوال وأعمال الصحابة بما فيهم الخلفاء الراشدين، إننا قد نستأنس بها ولكننا لا نراها من الثوابت الملزمة " وانظر ما جاء عن القرآن في فصل الركائز الثلاث لدعوة الإحياء الإسلامي " .

د- السنة: تعد السنة أيضاً من الثوابت بعد ضبطها القرآن ولئن كان هذا سيجعلنا نتوقف أمام العديد من الأحاديث التي تضمنتها المسانيد وكتب الصحاح (بما في ذلك صحيحا البخاري ومسلم) فإننا من ناحية مقابلة نأخذ بما اعتبره الفقهاء ليس تشريعاً من السنة مثل المبادئ والممارسات التي أساها الرسول كقائد جيش ورئيس دولة كما أن شخصية الرسول تستأثر لدى دعوة الإحياء الإسلامي بأهمية كبرى وتظل خالدة دائماً. إن القرآن عند قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإنه كان يرسي مبدءاً من أهم المبادئ وأكثره تأثيراً في الحياة والمجتمع - هو الأسوة والقدوة - وهو مبدأ لا تشير إليه الكتابات الأوروبية التي تعني بالنظم والسياسات في حين أنه يمكن أن يغني عما يضعونه من ضمانات وما يستهدفونه من غايات.

هـ - ومن الثوابت الشعائر العبادية التي فرضها الله وهي الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان شهراً في السنة، والزكاة كل عام، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً مرة واحدة.. وهذه هي العبادات التي يجب أن يقوم بها المسلم قياماً حسناً فيه النية وفيه الخشوع وحضور القلب. أما السنن والنوافل سواء كانت في الصلاة، أو الصيام أو الحج والعمرة، فمن الخير أن يدخر المسلم وقته وجهده لما أصبح أكثر أهمية من عمل في القضية العامة.

وعليه أن لا تتملكه الأنانية فيركز كل جهده لإنقاذ نفسه من النار، لأن عليه واجباً لإنقاذ إخوانه الذين هم في أمس حاجة للمساعدة. فتعليم أمي وفتح آفاق الثقافة والمعرفة أمامه أجدى عند الله وأفيد للمسلمين من أداء النوافل، وإنفاق على محتاجين أو توظيف أو تزويج شباب أفضل من حجة وعمرة بعد عمرة إلخ..

حقاً إن الرسول كان يقوم بالليل ويصوم بالنهار ولكن هذا إنما كان لأنه الرسول الذي اصطفاه الله وأنعم عليه بما لم ينعم على أحد من العالمين وخلد ذكره وجعل اسمه يتردد في أربعة أركان العالم خمس مرات في اليوم مع الأذان. وهذا فضل ومنة لا يفي بها أن يقوم الرسول الليل كله وأن يصلي النهار كله. ولكنه مع هذا كان يخصص لأهله ولقومه الوقت الكافي، فمن القياس الخاطئ أن يسوى بعض الناس ما بينهم وبين الرسول في عبادته، وفيما يتقرب به إلى الله، لأنهم لا يظفرون بما ظفر به الرسول من الشرف الرفيع ويكفيهم أداء الفروض ومثلهم مثل الأعرابي الذي جاء للرسول وسأله عما عليه فلما أجابه رد بأنه سيفعلها " ولا يزيد عليها " فقال الرسول " أفلح إن صدق " ونحن نقنع بهذا الفلاح ونوجه طاقاتنا لأداء الواجبات العديدة التي ترحم المسلم المعاصر نحو نفسه، وأهله، ووطنه..

ولرب قائل يقول " هل تحجر على مشاعر الذين يجدون نفوسهم تهفو للصلاة، ويحسون الطمأنينة والراحة وهم يتهدون بالليل؟ فنقول نحن لا نحجر على من يستشعر هذا أن يقوم بما يشاء من تهجد وصلاة ولكننا نتحدث عن عامة الناس، ومن ناحية المبدأ أما بالنسبة للأحاد، فلكل أن يتبع ما يتفق مع نفسه ولكننا نفضل ما ذهبنا إليه للعامة تخفيفاً عنهم وحرصاً على الأولويات.

وعندما أوجب الإسلام أداء هذه الشعائر والعبادات، فإنه في الوقت نفسه أوجد تيسيرات ورخصاً مثل الجمع بين الصلاتين في الحضر عند الضرورة ومثل المسح على الجوربين، والتيمم عند انعدام الماء، والإفطار للسفر وإفطار المسن الذي لا يطبق الصيام وبعض هذه التيسيرات مما جاء به القرآن الكريم والآخر

مما جاءت به السنة. ونحن نأخذ بها لأن الرسول رحمة للعالمين ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ ولأن التيسير أصل من أصول الإسلام فليس في الأخذ بهذه الرخص شبهة. بعد هذا كله إذا فات فرد أداء بعض هذه الواجبات فهناك صور عديدة لإصلاح هذا مثل الاستغفار وعمل الصالحات والإنفاق والتوبة - وهي ممارسات تصلح لتعويض ما قد يطرأ لأحد فيؤدي إلى عدم قيامه بأحد الفروض دون تمييز، بمعنى أن ذلك ينطبق على الصلاة أيضاً، فإن القداسة الخاصة للصلاة ليست أعلى من التوبة والاستغفار وفعل الحسنات.

## ٢ - الفنون والآداب:

الفنون والآداب تعبير عن النفس الإنسانية وما ألهمها الله من فجور وتقوى، وهي بهذا المعنى تمت إلى الإنسان، وهي من " حرث الدنيا " الذي لم يمنع الله عطاءه عنه ولم يفرض عليه عقوبة. وإنما أخرج الحكم فيه إلى يوم القيامة.

ومن هنا يتضح خطأ القول بأن هناك فناً غير إسلامية، إن الفنون جميعاً إنسانية فيها نبل الإنسان وسموه كما أن فيها فجوره وشهوته وما نبل وسما فإنه يتفق مع قيم الإسلام. أما ما انحط وسفل منها فإنه يجافي قيم الإسلام، ولكنه في الوقت نفسه ليس إلا انبعاثاً من النفس الإنسانية كما وضعها الله وبث فيها التقوى والفجور، وللمؤمنين الذين يضيقون بأنماط منها أن يعتبروها امتحاناً لصلابتهم ولا يكون الامتحان بالقضاء عليه أو بإزالتة ولكن بالنجاح فيه والانتصار عليه..

في نظرنا أن الإسلام لا يحصر الفنون في المجالات الإسلامية على وجه التعيين ولكنه ينظر إليها كانعكاسات وتجليات للنفس الإنسانية بما غرسه الله فيها من فجور وتقوى، وبالتالي فإن الحساب عليها يكون تبعاً للاعتبارات العمومية التي يمتزج فيها المجتمع وأوضاعه بالفرد وميوله. ولا يمكن حسابها حساب الفعل البسيط المجرد، ومن ثم فإن الله تعالى أوكل الحساب عليها إليه يوم القيامة. ومعنى هذا أن تكون نظرنا إليها تبعاً للاعتبارات الاجتماعية وليست الإسلامية التي سيتولى الله الحساب عليها..

ولعلنا نذكر في هذا الصدد أن الإسلام لم يبتكر للفرجة الجنسية التي يمكن أن تكون في أصل كثير من الفنون والآداب وغيرها. ولكنه اعترف وعمل لتنظيمها ولاحظ في هذا قدرًا كبيراً من المرونة التي تفسح المجال لإشباعها. ولن يكون موقفه من الفنون والآداب أشد مما هو مع الفرجة الجنسية.

وللقضية جوانب عديدة وأبعاد كثيرة لا يتسع لها هذا الموجز والقول الفصل أن أي تقييد لها يفسد أكثر مما يصلح.. وأن الموقف إنما يتحدد من الداخل لا من الخارج، من نفس الممارس ونفس المشاهد، وليس من رقابة السلطة وتقييدها.

وقد أدى موقف الدعوات الإسلامية من الفنون إلى تجاهل كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والغناء، والرقص إلخ فهذه كلها رجس من عمل الشيطان، وإذا أصدرت صحيفة فإنها لا تعرض لهذه الفنون ولا تعرض صوراً من مشاهد الأفلام أو حتى تنتشر نقد " فنياً " وليس عبثاً أن لم يظهر في معسكر " الإسلاميين " فنان يجمع بين الفكر الفني والفكر الإسلامي باستثناء علي باكثير من الرعيل الماضي وصافيناز كاظم في



الحاضر وهي ناقدة مسرحية متمكنة وكان يمكن لسيد قطب أن يكون ناقدًا أدبيًا مع احتفاظه بالاتجاه الإسلامي، كما كان اليوت ناقدًا لحضارة العصر وداعيًا للمسيحية، ولكن الحاكمة الإلهية أخذته بعيدًا عن عالم النقد الأدبي وكان موقف الفنانات المعترلات أكبر دليل على سوء فهم الدعاة الإسلاميين للفن، وأن ما يجد بهؤلاء الفنانات هو التوبة، والإقبال على العبادة تكفيرًا عما قدمن وهذا هو ما فعلته، وكان لهن مندوحة في العمل واستثمار أسمائهن مواهبهن لرعاية فئات عديدة محتاجة أو العمل لمقاومة الجهل، والظلم والاستغلال التي تكبل المجتمعات الإسلامية وتحول دون تقدمها.

### ٣- المرأة:

نص القرآن الكريم بصريح العبارة على المساواة العامة ما بين الرجال والنساء وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١ التوبة).. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَبُو أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

وقد تضمن القرآن بعض الأحكام في الميراث أو الشهادة للمرأة طبقاً لأوضاع معينة كانت سائدة وقتئذ ومع أن بعض هذه الأوضاع قد تغير، فتظل الأحكام التي أوردها القرآن سليمة وقابلة للتطبيق. على أنه ليس هناك ما يمنع من إعادة النظر عند الضرورة ولم يكن هناك ما هو أكثر قداسة وتحديداً من مصارف الزكاة التي قال عنها الرسول إن الله حددها بنفسه ومع هذا فإن عمر بن الخطاب أوقف أحد هذه المصارف عندما انتفت العلة التي من أجلها نص عليه..

ونحن نرى أن المجتمع الذي يفصل ما بين الرجال، والنساء مجتمع غير طبيعي يخالف الفطرة وما أراده الله تعالى للمجتمع، كما نرى أن قضية الزني قد أخذت أكثر مما تستحق، فما يريده الإسلام، هو ككل الأديان. درجة من الاحتشام، وإتباع هذه الدرجة أو مجاوزتها يدخل في عداد التصرفات التي يسلكها الإنسان نتيجة لعدد كبير من العوامل الخاصة به. ومن ثم فلا بد أن يوجد من يلتزم ومن يجاوز، وكل واحد من هذين أدري بنفسه، وليس لأحد عنده من حق وصول به أو يفرض عليه، فهو جزء من شخصية صاحبه، وهناك قضايا تتعلق بالمرأة أشد أهمية، فمن الضروري مثلاً للمرأة أن تتعلم بقدر ما تسمح بها ملكاتها الخاصة، ومن الضروري لها أيضاً أن تعمل لا لحاجة أو فاقة وإنما لأن العمل مقوم هام في بناء الشخصية وتفهم الحياة، ودع عنك ما يمنحه للمرأة من استقلالية تنقذها من ظلم ذوي القربى " وظلم ذوي القربى إلخ.. " ودع عنك أيضاً ما ستقدمه للمجتمع من إضافة، وأن هذا العمل هو أفضل سبيل للتعرف على الرجال ومن ثم التعرف على الزوج الأمثل.

إن فرض تحكيمات أو تحفظات سلفية على المرأة هي مما نسقطه تماماً من حسابنا ونرى أنه يخالف روح الإسلام والمقاصد العليا الشاملة له وأن الأصل فيه الجهل والأثرة والعادات والتقاليد البالية.

### ٤- حرية الفكر:

نحن نؤمن بحرية الفكر إلى آخر مدى ونطبق ما قاله القرآن: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

وقضية حرية الفكر من أهم وأقدس القضايا التي يجب أن يحارب في سبيلها كل واحد لديه أدنى معرفة بأسباب تقدم الأمم والشعوب فالحرية هي التي تفسح المجال للمواهب والمبادرات الفردية، وهي التي تظهر الأبعاد المتعددة في كل قضية في حين لا يستطيع الفرد سوى رؤية بُعد واحد. والحرية هي التي تسمح بالنقد واكتشاف الأخطاء منذ أن تظهر وبهذا يحال بينه وبين أن تتفاقم وتنتشري.. بل إن الإيمان الديني نفسه يزدهر وينمو ويثمر في مناخ الحرية، بينما يأسن ويتوثن عندما تنعدم.

ولا يقل عن هذا أن الحرية هي التي تحول دون استبداد الحكام واستغلالهم للجماهير وإذلال الفرد وسجن الأبرياء وتعذيبهم بحيث ينتفي الأمان ويعيش الناس في خوف ورعب من انتصار طارق الفجر.. الذي يأخذهم إلى ما وراء الشمس..

عندما تتحقق الحرية يظهر المكتشفون والمخترعون والشعراء والأدباء وتنتلق الفنون والآداب ويتشجع رجال المال والصناعة لاستثمار أموالهم وتحقيق طموحهم في بناء الصناعة والنهضة بالتجارة والزراعة، ويفسح المجال أمام المرأة والفئات المهمشة للمشاركة في عمل المجتمع.

وعندما تتحقق الحرية تتكون النقابات التي تدافع عن حقوق العمال والجمعيات الخيرية ومؤسسات المجتمع المدني كما تظهر الأحزاب والجمعيات السياسية التي تكشف فساد الحكم أو زيف الانتخابات أو بيروقراطية الإدارة، وتضم هذه الهيئات كلها قوى الشعب بحيث تسهم هذه القوى إسهامًا عمليًا حقيقيًا نابغًا عن الإيمان ومستهدفًا المصلحة.

إن صحيفة يومية واحدة قد تكون أقدر على كشف الأخطاء وتعرية الفساد واقتراح الإصلاح وإفساح المجال لعامة الناس للمشاركة في هموم مجتمعهم من مجلس نيابي تحكمه ضرورات تنظيمية فضلاً عن أنه قد يكون قد جاء من انتخابات مزورة. ومصادرة مثل هذه الصحيفة هي جريمة اغتيال ضمير المئات والألوف من المواطنين وإيقاء للأمة في ظلمات الجهل والظلم. ومفتاح هذا كله حرية الفكر.

وهي الحرية التي جاءت في إحدى كتب دعوة الإحياء " إن الحرية في الإسلام تتبع من الحق. ولكن هناك حرية واحدة ليس للحق رقابة عليها لأنها هي الوسيلة للتعرف على الحق وضبطه - هي حرية الفكر ". وللأسف الشديد فإن الحرية هي أول ما يعني الحكام باضطهادها وكتبها في بلادنا، وتوصلوا إلى ذلك بمختلف الطرق وكانت النتيجة أن تدهورت أحوال الدولة والمجتمع في مصر، والعالم العربي والإسلامي الذي حارب حكامه الحرية.

لهذه الأهمية الإيجابية والسلبية - الإيجابية بمعنى قوى الدفع والتقدم، والسلبية بمعنى الحيلولة دون الاستبداد والتأخر. فإن موضوع الحرية من القضايا الملحة، المحورية، التي لا تنازل عنها. فإذا قيل إن للحرية انعكاساتها أيضًا قلنا إن الحرية نفسها تصح هذه الانعكاسات وحتى لو لم يتم هذا تمامًا فإنه خير من الانغلاق الذي يسمح بظهور الاستبداد.

## ٥ - الافتتاح والتعددية:

تتميز دعوة الإحياء الإسلامي عن الدعوات الإسلامية الأخرى بأنها تؤمن بالانفتاح، ولا تستشعر حساسية، فلا تحس استعلاء ولا تخشى استلحاقًا، ونقطة البدء هي المبدأ الإسلامي عن أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها

أنا وجدها، وإذا وجدها فهو أحق بها.. وأن عليه أن يطلب العلم " ولو في الصين " وأن الله تعالى أمر بالسير في الأرض والتعلم من الحضارات السابقة، وأن الرسول تحدث عن الأنبياء كإخوة، وقال عن موسى " نحن أولى به منهم " أي من اليهود وقال إن المسيح هو أقرب الأنبياء إليه، إذ لا يفصل بينهما رسول من أولي العزم.. وعندما دخل المدينة لم يستشعر حرجاً من أن يضم اليهود إلى قبائل الأنصار المؤمنة، مع المهاجرين، ويقول عنهم إنهم " أمة واحدة " وأن القرآن الكريم فرض على المسلمين الإيمان بأنبياء كل الأديان إلى درجة " لا نفرق بين أحد منهم " وكان هو أول من نادى بالعالمية وفتح أبوابها على مصراعيها عندما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وأمر القرآن الكريم بالعدل والبر حتى مع شنان العداوة ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

لا يتصور مع هذا " انغلاق " أو تجاهل الآخرين، دع عنك معاداتهم لمجرد أنهم " آخرون ". أما ما يخشونه من تغلغل للمؤثرات الخارجية، والغزو الفكري فهو ما لا يمكن أن يقال على علاته، فمن الطبيعي أن يميز المسلم بين الصالح والطلح الغث والسمين لأنه ليس قضاء يشغله أي شاغل.. أو ورقة بيضاء يسودها أي واحد. فالقيم الإسلامية التي تدفع المسلم للانفتاح على الخير هي نفسها التي تدفعه للانصراف عن الشر.. كما أن هذا الموقف هو جزء من الموقف العام الذي قد تعبر عنه بعض الكتابات الإسلامية بالابتلاء وصوره القرآن بحمل الأمانة.. بل وجعله واقعاً لا مناص عنه عندما أباح للشيطان فتنة الإنسان وأنظره إلى يوم يبعثون. فالانفتاح جزء من الموقف العام للإسلام تجاه الآخرين وهو لا يقتضي ضرورة أن يفتن المسلم أو يتزعزع إيمانه.

إن الحوار بين الحضارات وتلاقيها وما يثمره هذا التلاقي من تلاقح وإخصاب واقع تاريخي استفاد منه الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، أما تصادم الحضارات فهو تصور السياسيين والرأسماليين الذين لا يرون الأمور إلا قتالاً أو استحوازاً.

من هنا فإن دعوة الإحياء الإسلامي تتسم بالانفتاح والتعددية وتبعد عن الانغلاق والتفوق والانفراد الذي تتصف بهما معظم الدعوات الإسلامية المعاصرة.

## ٦ - التصرف:

ظهر التصوف كرد فعل لبعض الانحرافات التي حدثت في المجتمع الإسلامي مع تحول الخلافة إلى ملك عضوض، وفي مرحلة لاحقة عندما أصيب الفقه الإسلامي بالجفاف والشكلانية نتيجة خضوعه للمنطق الأرسطي ولاستلحاق الحكام للفقهاء.

وقد حاول بعض الصوفيين أن يعودوا به إلى أيام النبوة أو خلافة علي بن أبي طالب ولكنها دعوى ركيكة لأن إيمان هذه الفترة كان إيماناً سليماً مترناً لا يحتاج معه إلى التصوف.

وإنما أصبحت هناك حاجة ماسة إلى التصوف في العهد الأموي الذي شاهد استبداد حكام سماوا أنفسهم خلفاء، وكانوا في الحقيقة ملوكاً ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَٰةَ أَهْلِهَا أُذُنًا ۗ ﴾ ومع وقوع تلك المآسي كقتل الحسين وآله، وضرب الكعبة بالمنجنيق وواقعة الحرة.

واقترن هذا الاستبداد بتفشي الثراء في فئات معينة دون بقية الناس ويمكن اعتبار صيحة أبي زر إرهاباً، وقد حدثت لأن عثمان تخطى عن الأصول التي وضعها عمر لما تكون عليه السياسة المالية الصارمة للدولة. وجعلت هذه العوامل الثلاث: أعني استبداد الحكام استبداداً كبت الحريات وحال دون ظهور تنظيمات يتنافس عبرها المجتمع ويعبر عن نفسه، وتفشى الثراء في قلة من الناس بينما جمهور الشعب فقير، جائع، يكدح في الأرض أو يعمل في خدمة السادة ولا أحد يعني به، وأخيراً تحول الفقهاء إلى نمط من رجال القانون الذين يستهدفون حماية الأمن والنظام وتعاونهم مع الحكام والطابع الجاف البعيد عن التقوى والورع الذي أخذته الفقه وغلبة الطابع الشكلي عليه وابتعاده عن واقع الحياة..

نقول إن هذه العوامل الثلاث أعطت التصوف خاصيته وهي الزهد والبعد عن غمرات الدنيا وجعلت ظهوره أمراً لا مناص عنه، ودفعت بالجماهير المحرومة والمستبعدة إليه، وفي الوقت نفسه أبرزت عددًا من العقول لتضع للتصوف ما يشبه النظرية الفكرية.. من ناحية والإجراءات التنظيمية التي تمسك كيانه وتشد أركانه من ناحية أخرى.

كانت الطرق الصوفية هي الملاذ الوحيد للجماهير التي تخلت عنها نظم الدولة، واعتصرت لها وسائل الضرائب، وكانت ملاذاً وللاستقياء من الناس الذين ضاقوا ذرعاً بالفقهاء والحكام ويأسوا من إصلاح النظام، وكذلك الشباب المكبوت الذي لا تجد طاقة الحياة فيه منفذاً.. كل هؤلاء إلى من يذهبون؟ وبمن يلونون؟ لقد كان التصوف هو الملاذ الوحيد لهم الذي استوعبهم وتعامل معهم بطرقه الخاصة.

ووضع التصوف العلاقة بين " المرید والشیخ " باعتبارها نواة التنظيم في إطار حديدي صارم يجعل المرید " كالجثة بين يدي المغسل " وهو تشبيه يعني عن أي إضافة، ويجعل العلاقة ما بين المرید والشیخ أوثق من علاقة الجندي بالضابط فالجندي وإن كان عليه أن يطيع الأوامر دون مناقشة، فإن له الحق في " التظلم " وهو حق لا يتصور في العلاقة ما بين المرید والشیخ فقد كان على المرید أن يستسلم قلباً وقالباً للشیخ، وإلا خاب وخسر..

ولتلطيف هذه العلاقة وإمكان قبولها نسجت الأحاديث والأقوال والروايات عن الكرامات وعن عالم الأقطاب والأوتاد.. وأصقت " الخرفة " بعلي بن أبي طالب بحيث يجد المرید نفسه وهو يعيش في عالم أسطوري يكتسب قوته ووجوده من العقيدة.

كما نظمت " الحضرة " وحلقات الذكر وتطرق إليها عنصر فني وسمح بهامش من الموسيقى والرقص. كما سمحت الموالد بدرجة من الاختلاط بين الرجال والنساء وشهود صور من الألعاب والفنون والسير في مواكب تغطيها الأعلام العديدة وتلهبها الأناشيد حماسة وعاطفة.

بهذا أصبح التصوف ظاهرة بارزة في حياة المجتمع، وأصبح له تنظيم يقوم على عقيدة وتنظيم يقوم على ما توصل إليه شيوخه من ترتيبات تجمع ما بين الإدارة والتربية والتنظيم.. وكان بهذا مهياً للقيام بدور كبير، فهو التنظيم الأول - وربما الوحيد - الذي تمكن من حشد جمهور الشعب وتنظيمه وتسييره.

وبالفعل، فإنه حتى مع ما اصطحب به من خزعبلات كان مدرسة تنظيمية تربية شعبية ونافذة تخترق أسوار الاستبداد والفاقة والجهالة التي كانت تكبت كل تنظيم آخر ومكنت الجماهير وعامة الناس من أن تأخذ بحظ ساذج في صور من النشاط العام.

وإذا ذكرت مساوى التصوف، فجب أن نذكر في حسناته العظيمة أمرين:

الأول: أن الطرق الصوفية كانت إحدى الوسائل الفعالة في نشر الإسلام في النواحي القاصية. كانت الزاوية السنوسية البيضاء معلماً للعلم والنقاء وسط الظلمات الأفريقية المتكاثفة، وكانت الطريقة القادرية والنقشبندية قنوات لنشر الإسلام في آسيا من الصين حتى القوقاز بما في ذلك اندونيسيا والملايو. وظلت هذه الجماهير التي كسبتها الطرق الصوفية مخلصاً للإسلام في الوقت الذي طويت فيه صحف أقطار أخرى دخلها الإسلام بالسيف. فمن دخل بالسيف.. بالسيف أخرج.

الأمر الثاني: أن الطرق الصوفية. بحكم ما أشرنا إليه من أنها كانت التنظيم الوحيد الذي حشد الجماهير ونظمها. كانت هي التي تحملت عبء مقاومة الاستعمار الأوروبي طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وكانت هي التي شنت حرب التحرير عندما حانت الفرص. ظهر هذا في السودان حيث بدأ المهدي حربه ضد الإنجليز وفي ليبيا حيث قادت السنوسية الحرب ضد إيطاليا التي لم تتمكن من التوغل وراء مرمى مدافع أساطيلها إلا بعد قتل عمر المختار، وظهر في الجزائر عندما شن عبد القادر وهو صوفي عريق الحرب على فرنسا وعندما حافظ الشيخ ابن باديس على العربية والإسلام ضد الإذابة، وظهر في الريف (المغرب) عندما تولى الأمير عبد الكريم الخطابي الحرب على أسبانيا، وقامت الطريقة النقشبندية والقادرية بتنظيم المقاومة ضد الروس في منطقة القوقاز ولمعت خلال ذلك أسماء الشيخ شامل وحاجي مراد.. وغيرهما.

هذه صفحات مشرفة يجب أن لا تنسى للطرق الصوفية..

ولكن الطرق الصوفية تستطيع - في العصر الحديث. أن تقدم إضافتها..

إن تهذيب النفس ورياضة الغرائز وكبح الشهوات والسمو بالروح لا يتطلب بالضرورة هذه الأساطير التي وضعها الأسلاف لتعزيز منزلة الشيوخ وتدعيم بناء التصوف، ولا هي تقتصر على الوسائل الساذجة والبدائية في تنظيم الحضرة وحلقات الذكر وعقد الموالد.. فهذه كلها كانت من مقتضيات الماضي المغلق البعيد ويمكن الآن أن تؤدي بأساليب مهذبة، وقد آن الأوان للتصوف لأن يخلص من أدبياته التي تتفاوت ما بين الأسطورة والشعبذة.. وأن يستلهم آدابه وقيمه من القرآن الكريم. وأن يجعل من الرسول وسيرته الأسوة الحسنة لكل الصوفيين.

وفي الوقت الذي يمكن للطرق الصوفية أن تواصل مهامه في نشر الإسلام ومقاومة الاستعمار الذي أخذ صوراً وأساليب جديدة. فأعتقد أن له دوراً كبيراً في العمل في المجتمع.. وبوجه خاص في مجالات مثل التعليم، و " التمرريض " ورعاية المعوقين، والعناية ببعض الفئات المحرومة.

ولو أن شيوخ الطرق الصوفية ألموا بتاريخ وتطور ومناشط هيئات " الرهينة " وهي المقابل المسيحي للتصوف الإسلامي لوجدوا أن هذه الهيئات تقوم بدور كبير في المجتمع جعل شعارها " الدين في خدمة المجتمع " ونحن الآن في حاجة إلى صوفيين لا يجعلون هدفهم " الفناء في الله " ولكن " الفناء. في خلق الله " كما كان يقول جمال الأفغاني أو " حب الله " فله أصل مشرق من القرآن في حين أن الفناء في الله له أصل هندي غامض - وتجعل من الرحمة، والمحبة، والخدمة والتطوع وبقية القيم الإسلامية محاور في العمل الاجتماعي تعني - ما لا تغنيه - الشهادات أو المرتبات أو المناصب إلخ.. كما قد يكشف عن ذلك تمييز أداء الممرضة الراهبة المتطوعة، عن أداء الممرضة " المدنية " المحترفة.. وتميز المدارس التي تقيمها هيئات " "

الجزويت " وسان فرانسيس، والقلب المقدس وميرده ديبه عن المدارس الحكومية " أو التي تقيمها شركات تستهدف الربح - وكذلك الفرق بين زيارة راهبات الزيارة Visitandines المشبعة بالمحبة بزيارة الأخصائي الاجتماعي الرسمية الجافة.

## ٧- القومية:

إذا أريد بالقومية حب الوطن، فإن حب الوطن من الإيمان، ونحن أول من نقبلها ونتقهم حب كل ذي وطن لوطنه، واعتزازه به والفخر بما قدمه للبشرية من مساهمة حضارية.

ولكن الذي حدث هو أنه أريد أن تكون القومية العربية بديلاً عن الإسلام، وهذه فكرة ضالة وخاطئة.. وقد كان المبرر الأول لها هو أن المفكرين الذين انتبهوا لقضية النهضة العربية أول القرن كانوا من المارونيين في لبنان<sup>(15)</sup> ومن نصارى سوريا وعسر عليهم بالطبع أن يكون الإسلام هو محور النهضة. فأخذوا بفكرة القومية ناسين، أو متجاهلين. أن القومية العربية دون الإسلام لن تكون سوى صدفة فارغة من لؤلؤتها وهو أمر لن يعسر على أي مفكر أن يفتن إليه.

وإذا أخرجنا من مقومات القومية الدم، لأنه ليس هناك - ولا في الجزيرة العربية نفسها - دم عربي خالص - فضلاً عن أن الدعوى عنصرية بغیضة فلا يبقى إلا اللغة. واللغة العربية التي نتحدث بها اليوم تدين بولائها للقرآن. ليس فحسب لأنه أوجد اللغة العربية القياسية وجعل العرب جميعاً يتحدثون بها ولا ينحرفون عنها لقد استهوا. وحال بذلك دون أن تتحول اللغة العربية إلى لهجات إقليمية لا تفهم، ولكن أيضاً لأن كل فنون البلاغة والنحو، والأعراب جاءت في القرآن وكان دور العلماء الكشف عنها لا إنشائها واللغة العربية بنت القرآن وهي محتاجة إليه أكثر مما هو محتاج إليها.

وقد أثبت التاريخ أن القومية شؤم وأنها تجر الكوارث على كل بلد يأخذ بها فعندما ظهرت أول دعوة قومية في منطقة الشرق - في تركيا - حاق شؤمها بالذين دعوا إليها وهي جمعية الاتحاد والترقي - فهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى هزيمة منكرة ومزقت شر ممزق، واحتل الحلفاء القسطنطينية. وعندما حلت بسوريا أدت إلى حكم البعث الديكتاتوري ومذابح حماة، وعندما حلت بالعراق حكمها أسوأ الديكتاتوريين في العالم قاطبة، وألحقت المهانة والفاقة بالعراق، وعندما آمن بها عبد الناصر ورفع رايتها كانت النتيجة هزيمة ٦٧ التي أخزت الأمة العربية مائة عام على الورا.

كانت القومية العربية دعوة ديماجوجية لا تقل في شعاريتها عن " الحاكمة الإلهية " أو " الإسلام هو الحل " أما المدلول العملي له. فلم يكن محل معالجة عملية باستثناء التجربة المجهضة للوحدة بين مصر وسوريا، وقد كانت الصورة الوحيدة التي أمكن وضعها هي جامعة الدول العربية التي ضربت المثل في الإخفاق والسلبية، وقنعت في كل مجال " بأقل الإيمان " وأتصور أن الدعوة السياسية المثلى في الدول العربية يجب أن تستهدف تكوين عدد محدود من الدول العربية بدلاً من التكوين الفيسفائي عن طريق الاندماج الاختياري والشعبي بين عدد منها تبعاً لصلات الجوار، ووشائج التاريخ والمصلحة كأن تتكون دولة واحدة تضم العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ودولة ثانية تضم الجزيرة العربية (السعودية - واليمن - وإمارات الخليج وعمان)

(15) كان الرائد فيها هو نجيب عزوري أسس جمعية الوطن العربي سنة ١٩٠٤ وأصدر كتاباً بالفرنسية عن يقظة الأمة العربية.

ودولة ثالثة تضم تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، ودولة تضم مصر وليبيا والسودان. فالعلاقات بين هذه الدولة بعضها بعضاً تسهل هذا الدمج وبذلك يظهر عدد من الدول القوية. يمكن أن يضمها بعد ذلك حلف أوكومنولث عربي.

إن السياسة لا بد وأن تركز على دعائم أصولية قوية، ولا بد أن تلاحظ الجغرافيا والتاريخ ونقط الاختلاف والائتلاف والمصلحة المحقة التي ستعود على الشعوب والجماهير. ولو اتجهت الجهود التي تلف وتدور حول القومية العربية هذا الاتجاه، وحملت الهيئات الشعبية من نقابات وأحزاب وجمعيات وتيارات هذه الدعوة وسعت لتطبيقها لأمكن تحقيقها بالفعل ولخلصنا من مسخر المنازعات التي تحدثت نتيجة لنزاع حول الحدود. وما هذه الحدود إلا العقابيل التي وضعها الاستعمار قبل أن يرحل ليوجد عناصر الصراع في المنطقة، وليفتت وحدته وليوجد دويلات كل منها " كالكقط يحكي انتفاخاً صولة الأسد".

## ٨ - الاشتراكية:

إذا كانت الاشتراكية دعوة للعدالة، فالأديان أقرب إليها وأولى بها وقد سبقتها سواء في ذلك المسيحية والإسلام. وإذا كانت نظرية علمية في تفسير التاريخ. فهي إن صدقت على تطور المجتمع الأوروبي لا تصدق على تطور المجتمعات الأخرى. وهي تظلم الدور الحضاري للإنسان عندما تركز العناية كل العناية بعلاقات الإنتاج. على أننا نشكر لها أنها نددت باستغلال الرأسمالية للعمال وإن كانت قد أدعت لهم دوراً لم يدعوه لأنفسهم، لأن دور العمال كعمال قد تمثل في الحركة النقابية التي نهضت بالفعل بهم، وأنالتهم من الحقوق السياسية والاقتصادية ما عجزت عن الديمقراطية والاشتراكية معاً. مع أن الاشتراكية ما بين ماركس ولينين كانت تضيق بالحركة النقابية وتنقض من دورها.

ومع أن كتابات ماركس وإنجلز تضمنت الكثير مما يدين الاشتراكية ويحسب عليها فنحن لا نحملهما تعصب الإتياع وإغراض الشراح، وإدعاءات التطبيق، خاصة بعد أن قال ماركس نفسه " لست ماركسياً" ومن ثم فنحن لا نتجاوز بالنسبة لهما نقد ما قالوا وأن نضع الحجة أمام الحجة والدليل تجاه الدليل. ومن أبرز وجوه النقص في فكر ماركس وإنجلز.

(أ) اعتبار الدين " أفيون الشعوب " ومن ثم ازدياد كل ما يمت إليه ومهاجمة كل فكر ديني وتجاهل الأدبيات الثمينة التي جاءت بها.

(ب) أن ماركس تحول من النزعة الإنسانية/ المثالية التي تأثر بها في شبابه والتي كسبت بها الاشتراكية جمهورها - إلى المادية التاريخية - وقد كشف هذه النقطة أحد بحوث " التوسير " وعرض وجهة نظر التوسير كاتب عربي فقال:

" يقدم التوسير مقولة جوهرية عندما يؤكد ضرورة التمييز بين أعمال الشباب وأعمال النضج عند ماركس من حيث إن الأولى تظل حبيسة فلسفة مستلهمة من النزعة الإنسانية على حين تحررت أعمال النضج منها تماماً. فقد قاطع ماركس الناضج هذه الفلسفة وأنشأ المادية التاريخية باعتبارها علم التاريخ. هذه المقاطعة ذات طبيعة ايستمولوجية حيث أنها تعبر عن الانتقال إلى العلم. وقد وقعت عندما كتب ماركس " الإيدلوجيا الألمانية " في هذا الكتاب يقول ماركس وإنجلز إنهما تحررا من وعيهما الفلسفي القديم. ويجب أن نفهم هذا

حرفياً. وعندما كتب ماركس رأس المال فقد كان موقفه النظري هو موقف المعارض للنزعة الإنسانية أو الهيومانية.

ويستطرد الكاتب فيقول " ويعيد التوسير هذا التطور إلى أن هناك علاقة عضوية بين الفلسفة الإنسانية النزعة وبين صعود البرجوازية. إن النزعة الإنسانية هذه تشكل بالضرورة إيديولوجيا البرجوازية لأن نمو الرأسمالية يتطلب المنافسة الحرة وحتى تكون هذه ممكنة فلا بد من وضع البشر، شكلياً، على قدم المساواة ولا بد من النظر إليهم كذوات حرة ومسئولة. هذا الطرف التاريخي النظري والعملي في آن معاً يشجع على ظهور فكرة المساواة القانونية وذلك بإنشاء وتأسيس الذات كحق. أو كقيمة قانونية. وكل الناس يتمتعون بهذه الذات القانونية. إذن فالنزعة الإنسانية هي الإيديولوجيا السائدة للطبقة السائد في النظام الرأسمالي. الإنسان ذات من كل وجهات النظر. هو إذاً وبالضرورة، العنصر الأساسي الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند تفسير المجتمع أو التاريخ. مفهوم الجوهر الإنساني إذن هو القاعدة أو السند الضروري لأي إنشاء نظري يختص بالظواهر الإنسانية والاجتماعية وهذا يفترض إعداد فلسفة إنسانية النزعة ".

من هذه الناحية يمكن أن يعد مارك كمدكر مسئولاً عن الطابع اللإنساني الذي شوه كل التطبيقات الاشتراكية، وجعل قادتها يرتكبون - بمجرد تملكهم السلطة - الموبقات والفظائع وسفك الدماء والتضحية بالملايين من البشر ليتمكن تحقيق خططهم (كالمزارع الجماعية في الاتحاد السوفيتي) وتصفية القسس ورجال الدين وتحويل الكنائس والمساجد إلى مخازن أو دور سينما، ومعسكرات العمل الرهيبة التي عجلت بوفاة الملايين..

على كل حال، فالمشكلة الحقيقية تظهر مع لينين وتجربته الفذة في التطبيق الاشتراكي، وسواء كان أميناً على فكر ماركس، أو أنه طوعه بقسوة ليحقق ما يريد فإن تجربته بعد أن نجح في الوصول إلى حكم روسيا - أصبحت التطبيق العملي للاشتراكية، والمثال الذي يحتذى في كل العالم وكان مثلاً بشعاً للغاية يقوم على القهر والانفراد بالسلطة وكبت الحريات وإخراس الأصوات المعارضة، وحل الأحزاب واستلحاق النقابات والهيئات الجماهيرية، ووضع لينين نفسه الخطوط التي يقوم عليها أشع جهاز للمخابرات والتجسس، ووضع خطة الإرهاب الحكومي الشامل الذي قلده بعد ذلك موسولين وهتلر. وكل قادة الاشتراكية المزعومة التي ظهرت في مختلف دول العالم، بما في ذلك الوطن العربي.

وكأنما ما كانت الأهداف التي أدت بلنين إلى سلوك هذا المسلك، ومهما كانت المنجزات التي توصل إليها فلا يمكن مطلقاً إيجاد أي صلة بين نظامه وبين أصول الحرية، والديمقراطية وحقوق الإنسان وأمن المواطن. فلم تختلف وسائل لينين عن وسائل القيصر " إيفان الرهيب " بل إنها كانت أكثر إيغالاً ومضاء في الوحشية.

## ٩ - التطرف والإرهاب:

أصبحت ظاهرة التطرف والإرهاب هي أكثر ما يوصف به الأصوليون كما يقولون ويقصدون في الأغلب الإسلاميين وأن لم نعدم أصوليين من أديان أخرى. والتعصب والتطرف والإرهاب ثلاث محطات على طريق واحد يوجد أصل الجهل. فالجهل يؤدي بأصحابه إلى التعصب والتعصب يصل بهم إلى التطرف والتطرف



يجد نهايته في العنف. وهي سلسلة منكودة من الظواهر لا يمكن أن توجد في بيئة صحية سليمة. وإنما توجد دائماً في مناخ الفساد والتحكم والفقير والجهالة.

وقد كان أول ظهور لها في سجون عبد الناصر كرد فعل على التعذيب الوحشي الذي، فكل رد فعل لا بد وأن يتسم بما في الفعل نفسه من نقائص وأدى إلى تفاقم الظاهرة فساد النظم الحاكمة ولجئها إلى الحل الأمني - لعجزها عن تطهير نفسها من الفساد، أو إحلال الحريات محل الكبت والقهر..

فمع أن الظاهرة سيئة. بل بشعة، فإنها لا يمكن أن تعالج من ناحية واحدة، ولا بد أن يشمل العلاج الأوضاع الحكومية السيئة التي تولد التعصب والثورة وأبرزها الطغيان وكبت الحريات لأن هذه الصور من العنف الأهوج ليست حقيقتها إلا صورة غشيمة للرد على فساد الحكومات. ولا يمكن أن تقوم على أساس نظري أو أصولي. فكل الأسس الأصولية ترفضها وتشجبها ولا تتقبلها.

وإنه لمن السفه أن يتصور البعض أن اغتيال بعض الأشخاص - أو تدمير بعض الدور سيؤدي إلى الاستيلاء على الحكم! أو حتى إرهاب الحكام. أنها تستنفرهم بكل قوة وحتى لو فرضنا جدلاً - وبحكم عوامل طارئة أن هذه المحاولات ستنتصر - كما حدث في أفغانستان حيث ظهرت طالبان - فإنها لا يمكن أن تمارس حكماً رشيداً وستنتج النهج الذي عابته على الحكومة - نهج الديكتاتورية والعنف.

وقد أظهرت تجربة التاريخ أن كل محاولات العنف بالفشل - وقد كانت أكبرها هي حركة " النهليست " ثم روسيا ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فقد كبتت الحركة وأعدم أو سجن قادتها، وطويت صفحاتها حتى وإن كان من المحتمل أنها هيأت المسرح لظهور الثورة البلشفية..

ودعوة الإحياء الإسلامي يملكها الأسى لما تشده من جهل قلة شاردة بالإسلام يؤدي إلى التعصب، فالتطرف، فالعنف، ولو فهمت الإسلام لما مارست هذه الجماعات متقال ذرة مما تحاوله. فكل الدعوات الإصلاحية لا بد وأن تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والبعد التام عن كل صور القهر أو العنف لأن الغابات النبيلة لا بد أن تكون وسائله نبيلة، وإلا فستقضي الوسائل غير النبيلة على كل عناصر النبيل في الغاية.

ودعوة الإحياء الإسلامي تطرح كل ما يتخيله يراع هؤلاء أو يدعونه من فقه جهاد. فالجهاد الأعظم هو جهاد النفس ولا يكون القتال إلا رداً على قتال، وبقدرة، وبعد استفاد كل وسائل الحسنى.

## ١٠ - الحضارة الأوروبية:

الحضارة الأوروبية هي - باختصار - الإنسان بملكاته الثلاث، العقل والوجدان والغريزة، وقد ظهرت بمقوماتها من الأيام الأولى لليونان. فعلى نقيض الشرق لم يتصور فلاسفة اليونان أن أصل الأشياء، والمخلوقات تعود إلى إله، ولكن إلى النار، أو الماء، أو الذرات، وقد أمكنها أن تشبع الملكات الإنسانية الثلاث إلى آخر مدى يمكن للإنسان أن يصل إليه ونشأت عن هذا أمجادها وإنجازاتها كما نشأت أيضاً ردود فعل ذلك وأبرزها تجاهلها للآخر. فتركيزها على الإنسان ونفي كل ما عداه واستغراقها في نفسها، وأن " الإنسان " يتحول في بعض الحالات إلى الفرد الذي لا يأبه للفرد الآخر إلا مضطراً وبحكم ضرورات التنظيم

الاجتماعي. ولما كان هذا الاضطرار غير موجود تجاه الإنسان غير الأوروبي فإن هذه القوى انطلقت على غلواتها وثبت أنه لا العقل ولا الوجدان يمكن أن يتصدى لما تمليه الغرائز من أثره وأثانيته واستحواز واستغلال.

فإذا سلطت على الآخر الذي لا يملك مثل ما تملك هي فإن قوى الوجدان تتقهقر أمام الغرائز ومن ثم تعد إبادة الطرف الآخر أفضل الحلول وهو ما مارسته الحضارة الأوروبية بالفعل في أفريقيا وآسيا والهند الحمر.

على أن تجاهلها للآخر - عندما يصل إلى الله تعالى فإنه ينتهي بها إلى أن تقضي على نفسها، ذلك لأن الله تعالى هو وحده الذي يملك كبح طغيان الإنسان وإلزامه الوقوف عند الحدود التي يضعها له والتي تكفل السلامة وتحول دون الشطط الذي لا بد وأن يأتي في النهاية عليها. وهذا هو النقص الأعظم في الحضارة الأوروبية - بالنسبة لها نفسها - إن " التضخم " لا بالمعنى الاقتصادي وإنما بالمعنى الشامل يشبه نمو سرطانياً لا يلبث أن يتغذى على الخلايا الحية للمجتمع، وهي لا تملك أن توقفه، بل إنها تتورط أكثر وأكثر فيه. إن الحضارة الأوروبية ستموت من التخمة في حين أن الحضارات الأخرى كانت تزول من الجوع. ولو أن أوروبا تعرفت على الله، كما صورته القرآن الكريم وآمنت به لعالجت أكبر وجوه نقصها ولتخلصت مما يشوها، وما سيؤدي إلى انهيارها وهو التجاوز والشطط. وهذا هو ما يقدمه الإسلام لأوروبا.

## ١١ - مواطنون غير مسلمين:

في كثير من الدول الإسلامية توجد مجموعات مسيحية أو يهودية إلخ.. وللوهلة الأولى يبدو أن موقف هذه المجموعات لا بد وأن يتسم بنوع من القلق إزاء الدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي. وهذا فعلاً هو الواقع، ولكنه يعود إلى الطبائع والعواطف والمشاعر أكثر مما يقوم - بالنسبة للإسلام - على حقائق أو موضوعية. ذلك أن الإسلام لما كان آخر الأديان فقد كان عليه أن يحدد الموقف منها وقد حدده على أساس الاعتراف بالأديان السابقة كلها، والاعتراف بأنبيائها - أو قل الإيمان بأنبيائها إلى الدرجة التي " لا نفرق بين أحد منهم " بما في ذلك نبي الإسلام وتحديد الموقف تجاه هذه المجموعات من الإسلام على مبدأ ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾.

وفي الأيام الأولى لظهور الإسلام شن اليهود حملة عليه لما اتصفوا به - وما زالوا يتصفون به - من استعلاء - وأنهم " شعب الله المختار " وألبوا عليه مشركي مكة وسجل القرآن هذا الموقف وندد به، ولكنه استثنى منه من لم يسلك هذا المسلك فقال " ليسوا سواء ".

وقال:

﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (٧٥ آل عمران).

ولكن الإسلام كان قريباً من المسيحيين لأنه ما من رسول يفرق رسول الإسلام ورسول المسيحية ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيْنَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وبالنسبة لأقباط مصر، فإن الرسول كان يشعر بعاطفة خاصة لأن أم العرب هاجر مصرية تعرضت لاضطهاد سبق به الإسرائيليون اضطهاد المصريين لهم فيما بعد ونفيت إلى الصحراء وكانت سبباً في ظهور زمزم - والصفاء والمروة فهي جزء من التاريخ الإسلامي/ العربي - وأن الرسول نفسه تزوج من " ماريه القبطية " التي ولدت له إبراهيم الذي أسعده حيناً من الدهر ولهذا فقد رأى أن لهم نسباً وصهراً.

ومعروف أن الإسلام اتصف بسماحة لم تتصف بها معظم الأديان الأخرى. وأن اليهود، وهم الأعداء القدامى للإسلام - لم يسعدوا في مجتمع كما سعدوا في المجتمع الإسلامي ولهذا فإن الموقف الإسلامي المقرر بحكم واقع الإسلام - وبحكم روحه. هو مسالمة كل الذين لا يدينون بالإسلام ما داموا لا يقاتلون المسلمين ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ وتقبل وضعهم كمواطنين غير مسلمين " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وليس الضيق بهذا الوضع أو الرغبة في تحويلهم عنه.. فلو كان في هذا خيراً لأمر الله به " وكان الناس أمة واحدة..

ومعروف أيضاً أن روح المسيحية هي الرحمة والمحبة، وأن روح الإسلام هو العدل والأنصاف، وهذه قيم متكاملة. يفترض أن يوجد معاً حتى يتحقق الكمال، ولهذا فإن حكمة الله البالغة اقتضت وجودهما، وأرادت لهما البقاء معاً، ورفضت فكرة الأمة الواحدة التي لا تدين إلا بدين واحد وهي حكمة يعجز عن إساعتها كثير من الناس لغلبة العواطف والذاتيات عليهم.

وبعد هذا كله، فالأديان كلها في سلة واحدة لأنها جميعاً تؤمن بالله في مواجهة من تطلق عليه هذه الأديان " الشيطان " أي غلبة الأثرة والأنانية والاستمتاع وما تدفع إليه من طمع واستحواز واستغلال وظلم، وهو الاتجاه الذي لا بد وأن يغلب على النفس الإنسانية إذا لم يعصمها الله بدينه ورسالته ومن هنا فالمؤمنون جميعاً تجمعهم أصرة واحدة في مواجهة " الماديين " الذي لا يؤمنون بالأديان أو يرونها " أفيون الشعوب " ويكون أي واحد من هؤلاء؟ المؤمنون أقرب إلى المؤمنين الآخرين مما هو بالنسبة لغير المؤمنين بالدين أصلاً..

ومن المؤسف أن ليس كل الناس يدرك هذه الحقيقة. على بدايتها، وأن بعضهم من غير المسلمين قد يؤثر اعتناق الماركسية نكاية في الإسلام رغم أن الماركسية أبعد إليه من الإسلام..

ومن الحق أن هذه الأقليات يهودية أو مسيحية - كانت كبش الفداء من بعض الحكام المسلمين الظلمة، ولكن حكم هؤلاء الطغاة طال المسلمين أيضاً، كما حدث في بعض الحالات أن اصطنع الحكام أفراداً من هذه الأقليات حتى ندد بذلك بعض الشعراء على أن هذه التصرفات سواء كانت اضطهاداً أو اصطناعاً يجب أن لا تحسب على الإسلام، فما يحسب على الإسلام هو القرآن والصحيح الثابت من حديث الرسول الذي يتفق مع القرآن..

وعلياً أن لا ننسى العداوات الحادة بين المذاهب المسيحية - وأن بعضها ارتكب الفظائع مع أنصار المذهب الآخر، كذلك الحرب المريرة ما بين الكاثوليك والبروتستانت التي حفلت بالمذابح ولا تزال بقاياها بين

المجموعتين في إيرلندا، كما أن المسيحيين البيزنطيين أذاقوا الأقباط المصريين سوء العذاب، وكان الذي حررهم من هذا الاضطهاد هو عمرو بن العاص الذي يعد أحد بناء الكنيسة القبطية، لأنه استنقذ البطريرك بنيامين ووكل إليه ممارسة سلطاته الكنسية بكل حرية..

أما الجزية، فإنها قطعة من مقتضيات العصر القديم وكانت الفكرة الرئيسية فيها أنها مقابل لإعفاء غير المسلمين من الاشتراك في الجيش الإسلامي مع تمتعهم بحماية هذا الجيش، يدل على ذلك أن النساء والأطفال والمسنين كانوا معفيين منها، وكان المجتمع وقتئذ أخذ بما تأخذ به بعض النقابات في العصر الحديث خاصة في الولايات المتحدة - عندما يعزف بعض العمال لأسباب مختلفة عن الانضمام إلى النقابة فتفرض عليهم النقابة دفع رسم انتفاع يطلقون عليه Agency Shop مقابل ما تقدمه النقابة من خدمات للعمال جميعاً سواء كانوا أعضاء فيها أو لم يكونوا. ومن المسلم به أن " القومية " نزعة حديثة لم تكن موجودة لا في أوروبا ولا في الشرق طوال القرون الوسطى. وأن أوروبا كانت تعتبر المسيحية أبرز مقوماتها. وكانت الكنيسة هي التي تهيمن على المجتمع سياسياً واجتماعياً فالوعي الديني كان هو الغالب طوال العصور القديمة حتى بدأت الفكرة القومية مع مشارف العصر الحديث وظهر أنها أكثر تجاوباً مع حاجات المجتمع وقتئذ.

إذا استوعبنا ما قدمناه، فإننا لا نجد مبرراً لأي حساسية بين المؤمنين بأديان مختلفة لأن كل واحد منهم يمثل ركناً في " البيت الكبير " الدين، وهو بهذا صاحب دور أصيل شأنه شأن الآخر.. ويفترض أن تتملكهم جميعاً العاطفة التي تمتلك الإخوة - وأن تعددهم يعطي الأسرة وقوة وتماسكاً ويشيع مشاعر الود والمحبة بين الجميع..

وهذا التكييف الإسلامي لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين المؤمنين بأديان مختلفة أفضل من التكييف الذي تدعو إليه بعض الأقليات من أن يحصر كل واحد دينه فيما بينه وبين الله. أما ما بينه وبين الآخرين فقد يكون العروبة أو " القومية " أو " المصرية " إلخ.. لأن هذا الافتراض ليس هو الأمثل كما أنه غير عملي فمن العسير جد أن يحبس الدين في نفس الفرد دون أن يطل على المجتمع، ولأن القومية أو المصرية إلخ.. ليست أصرة محكمة أو صفواً خالصاً لا تكدره الخلافات ولأن الإسلام عندما قرر حقوق الأقليات في القرآن والسنة فإنه حمى هذه الأقليات من أفتيات الأغلبية - التي هي حكم الديمقراطية - على هذه الحقوق بحيث تتمتع بها في الدول الإسلامية في حماية الإسلام وتخسرهما الأقليات الإسلامية في أوروبا/ لتحامل الأغلبية/ الديمقراطي فضلاً عن أن التعددية لها مزاياها التي تحول دون الطغيان، والانفراد وتسمح للجميع بالوجود في الساحة في ظل أخوة الأديان وأنها بيت واحد - بيت الإيمان - وللجميع حقوق وواجبات واحدة " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " وهو مبدأ إسلامي عريق.

## ١٢ - العقل والنقل:

نعتمد أن من أكبر أسباب تخلف المجتمع الإسلامي أنه منذ ألف عام أخذ بالتقليد، وهو الأداء دون السؤال عن السبب أو الحكمة. فتعطل وتوقف وصدئ عقل المسلمين وبالتالي تأخروا، وهو بالطبع أمر بديهي. فإنما يتقدم الإنسان بما فضله الله تعالى به على العالمين، بل وعلى الملائكة المقربين - وهو العقل..

ونحن نرفض تعبير النقل ونرى فيه أثر هذا الصدا العقلية ونفضل عليه تعبير " الوحي " الذي نعطيه الحق والاختصاص فيما يتعلق بذات الله تعالى وعالم الغيب وبصفة عامة العقيدة والإيمان على أن يتجلى هذا الوحي في القرآن الكريم صريحاً دون تأويل. أما الشق الثاني من الإسلام وهو الشريعة فإنه يقوم بالكامل على العقل وأي أطراح له يسمح لأن تدخل الخراف.

ويتملكنا الأسى عندما نرى الشباب وهم معقد الأم في المستقبل يزهدون في التفكير ويبخسون قيمة العقل ويفضلون النقل والإتباع. ولن يتقدم المسلمون ما ظلوا كذلك. ولا بد أن يعلموا أن العقل هو أيضاً وحي من الله، وأنه تعالى أنعم على الناس جميعاً به حتى يحميهم من الانحراف. أو الاستتباع، أو الخضوع، وأنه لا يمكن فهم القرآن نفسه إلا باستخدام العقل والتدبير والتفكير. أما دعوى أن العقل قاصر وأنه يتفاوت وعبارة " عقلي وعقلك " السقيمة فليس إلا شبهات لا أصل لها. فإن تفاوت العقول يثري الموضوع ويكشف أبعاداً خافية وباستمرار البحث والدراسة والمناقشة تتجلى الحقيقة، وفي النهاية يذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

### ١٣ - تطبيق الشريعة:

ما من عبارة تمثل " الشعارية " مثل تطبيق الشريعة وهي تتنافس في هذا العبارة الأخرى "الحاكمية الإلهية".

ونؤكد أن غالبية الذين يطالبون بتطبيق الشريعة لا يعلمون ما هي الشريعة على وجه التحديد وليس لديه فكرة عن طرائق التطبيق، ولا ينافي هذا أن المطلب في حد ذاته مطلب مشروع ونبيلا ولكن علينا أن نسير على هدى وبصيرة وأن نعلم أولاً ما هي الشريعة المطلوب تطبيقها. وما هي الوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا التطبيق.

الشريعة يا سادة ليست الحدود، وليست إلزام النساء البيوت ومحاربة الفنون والآداب والضيق بكل وسائل الترفيه.. الشريعة يا سادة في كلمة واحدة هي " العدل " فإذا أردتم الشريعة فطبقوا العدل. بحيث ينتقي النقطة السيئ ما بين فقراء لا يملكون شيئاً ويعيشون في المقابر وأغنياء يملكون كل شيء بما في ذلك مدن سياحية وقصور في مختلف دول العالم. وينتقي النقطة السياسي ما بين حكام يستبدون بالأمر ويحكمون بالحديد والنار وينفقون أموال الدولة على السجون وما يسمونه الأمن الداخلي، وجماهير لا تستطيع أن تمارس معارضة أو أن تساهم في الحكم.

فكل صور الديمقراطية في العالم الإسلامي مزيفة.

لقد أثبتنا في كتابنا " نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي " أن العدالة ليست من القيم الحاكمة في الحضارة الأوروبية، ولكن الحرية وهي أبرز القيم الحاكمة مكنت الفئات المظلومة - من عمال ونساء وجنود - من أن تنال العدالة، في حين أن العدالة قيمة محورية حاكمة في الإسلام وهي رمز الشريعة، ولكن انعدام الحرية حال دون تطبيق العدل وبهذا وجدت تلك المفارقة: أوروبيون يحققون العدل الإسلامي ومسلمون يطبقون الظلم الأوروبي؟

وتطبيق الشريعة لا يمكن أن يتم بطرق سلطوية، فكل الطرق السلطوية مقبولة ملعونة حتى لو أرادت خيراً لأنها تقتضي الديكتاتورية والطغيان. وهو نقيض الشريعة. وإنما يمكن تطبيقها عندما تؤمن بها الأغلبية العظمى من الناس ويتحقق فيها ما تحقق لدى الأنصار عندما آمنوا واستقدموا الرسول ليطبق عليهم الشريعة. أما عندما تؤمن مجموعة قليلة تتمثل في حزب أو هيئة وتعمل للوصول إلى الحكم لتطبيق الشريعة فهذا أسلوب خاطئ تماماً لأن هذه الأقلية سنضطر للعمل بطريقة الديكتاتورية، والديكتاتورية مفسدة، ولا علاج لها.

فهل فهتم أيها السادة هذا حتى لا يكون كمن ينطق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون!!

#### ١٤ - العلم والعمل:

من الموضوعات التي تحلها دعوة الأحياء الإسلامي في ألوياها قضية الجمع ما بين العلم والعمل وأن نظم التعليم المطبقة في الدول النامية تقدم بطريقة التلقين وحشو معلومات قد تكون حسنة، أو هامة، ولكنها ليست ما تتطلبه حياة المجتمع على وجه التعيين، وأهم من هذا أن هناك فصلاً تاماً ما بين العلم والعمل فأصبح العلم نظرياً بحتاً. كما أن العمل حرم من العلم. إن العلم يعطي العمل عينين.. والعمل يعطي العلم يدين بحيث يسير كل منهما على هدى ولو حرم العلم العمل لفقد اليبدين كما لو حرم العلم العمل لفقد العينين..

وأدت الترجمة العملية لهذا إلى وجود فئات عديدة من الخريجين لديها معلومات نظرية ولكنها لا تستطيع استخدامها، فضلاً عن أن المجتمع ليس في حاجة إليها، أو لا يلمس حاجة بقدرها فتكون هناك بطالة المتقنين ومن ناحية ثانية هناك ممارسات للعمل يدوية غشيمة لا يمكن أن تتقدم..

وزحفت " النظرية " على الكليات العملية بطبيعتها كالهندسة والطب فنجد المهندس الذي يأنف أن يلبس بذلة العمل الزرقاء أو يصعد السقالة أو يتابع خلطة الأسمنت المسلح ونجد الطبيب الذي لا يحسن إعطاء حقنة أو ممارسة إسعاف أولى.. وفي الوقت نفسه حجب المستوى الفني الرفيع عن معاهد التدريب المهني التي تخرج العمال المهرة..

وكان لهذا الانفصام أثر اجتماعي وبيل إذ أصبح المتقنون هم الطبقة البورجوازية، وأصبح العمال هم الطبقة الدنيا وأصبحت الميزة الفارقة بين الأولين والآخرين " الشهادة فكأن الجامعة أقامت سوراً بسمك الطبقة يفصل بين جماهير الشعب..

ولا يجوز في مثل هذا المجتمع أن يُرقى الميكانيكي إلى مهندس أو الممرضة إلى طبيبة أو الجندي إلى ضابط فهؤلاء الأطباء والمهندسين والضباط هم من خريجي الكليات الجامعية بها وقد دخلوها بفضل " المجموع " حتى وإن لم يكن لهم أي اهتمام أو معرفة بالمادة التي تقدمها الكلية.. مع أن الممرضة لو دخلت كلية الطب والميكانيكي لو دخل كلية الهندسة والجندي لو دخل كلية الشرطة لأمكن - بفضل ما لديهم من خبرة أن تختصر سنوات الدراسة إلى النصف.. فضلاً عن القضاء على التفارق الطبقي وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص.

إن الإسلام لا يعرف مجردًا والعمل منفصلاً. إنه يستعيز من " علم لا ينفع ". و " علم على أطراف اللسان"، كما أنه يستعيز من عمل لا يستهدى بنور العلم. وكثيراً ما أثر كبار الفقهاء والعلماء أن يحترفوا حرفة يدوية أسوة بالأنبياء داوود، وسليمان والرسول العظيم وصحابته الذين لم تمنعهم مراكزهم السامية من الاحتراف. وقد انتهت آخر الأبحاث إلى ما انتهى إليه الإسلام من قبل ووضعت النظم التي تفتح الدراسات المسائية للعمال للوصول إلى أعلى المستويات، كما أقيمت مراكز الأبحاث والكليات في المصانع الكبرى بحيث يجتمع العلم والعمل، وفي حالات أخرى تقسم مده الدراسة بحيث يؤدي نصف الوقت في الفصول والنصف الثاني في المصانع أو الحقول أو المكاتب. أو تخصص السنة الأخيرة للتمرين العملي وما إلى هذا كله مما يحقق الوئام الاجتماعي والتكامل العلمي/العملي.. والتكافؤ في الفرص.

إن نظام التعليم الحالي المطبق في معظم الدول النامية والذي يفصل ما بين العلم والعمل قد أفسد العمل، وأفسد المجتمع ولا بد من وضع حد لهذه الجريمة التي ترتكب باسم التعليم وذلك بأن يكون محور التعليم هو الجمع بين العلم والعمل بمختلف الوسائل.

كما أحيا العصر الحديث نتيجة لتراكم المعارف وتواليها المبدأ الإسلامي القديم عن التعلم " من المهد إلى اللحد " فالتعلم الآن عملية مستمرة متجددة لا تنتهي بنهاية سنوات الدراسة ولكنها تستمر " من المهد إلى اللحد"، أو كما كان يقول أحمد بن حنبل " مع المحبرة إلى المقبرة ". ويفترض أن توجد القنوات الثقافية التي تكفل هذا التعليم المستمر تبعاً لمختلف المستويات الثقافية، وأن تكون حرة دون قيود وتفتح أبوابها لكل راغب.

## ١٥ - الحركة العمالية والنقابية:

هذه صفحة كانت مجهولة من الدعوات الإسلامية، وعندما أعلنها وأثبتنا العلاقة الوثيقة بين الدعوة الإسلامية والحركة النقابية تعرضنا لهجوم منشأة العزوف النفسي المتأصل لدى قادة الدعوات الإسلامية لما سبق إلى أذهانهم من اقترانها بالفكر الشيوعي وأثارها للاضطرابات. ونسوا أن الإسلام دعا إليها قبل الشيوعية بأكثر من ألف عام عندما جعل فيصل العلاقات ما بين الناس العدل - وعندما كان جمهوره من المستضعفين وعندما رفع الرسول عاليًا اليد المجددة من العمل وقال " هذه يد يحبها الله ورسوله.. ".

ولما كان معظم قادة الدعوات الإسلامية يجهلون التعقيد الاجتماعي الذي دخل علاقات العمل مع دخل المصنع الآلي الرأسمالي وتقطب معسكر العمل ما بين رأسماليين وعمال، فإنهم جهلوا الأسلوب الوحيد الذي كان على العمال أن يعملوا به، وهو يعد أسلوب جماعي يتفق مع تفضيل الإسلام للعمل الجماعي. ذلك الأسلوب أن ينتظموا في نقابة تمثلهم جميعاً، وتقدم هذه النقابة إلى الرأسماليين عارضة مطالبها العادلة - ولأبد أن تكون عادلة لأنها إنما تستهدف أن يحقق الأجر الحياة الإنسانية للعمال وأن ينهالوا من الربح الذي يحصل عليه الرأسمالي بعرفهم وعملهم النصيب الذي يحقق هذا الهدف. فإذا رفض أصحاب الأعمال لاندوا بالإضراب ووضعوا أصحاب الأعمال في مأزق لأنهم رغم كل شيء يحتاجون إلى العمال. ومن ثم فإنهم يتنازلون عن كبريائهم واستعلائهم ويجلسون مع العمال على مائدة " المفاوضة الجماعية " التي يغلب أن

تصل إلى حل وسط لأن العمال يعلمون أنهم إذا اشتطوا فقد يمتلك العناد الرأسماليين، بحيث يبحثون عن حلول حتى ولو كانت مكلفة..

وهذا الأسلوب يمثل أفضل صور التعاون على الخير فهو عمل جماعي لا يستهدف فرد دون آخر والسلاح الذي يهدد به سلاح سلبي - وهو الامتناع عن العمل- وهو بالإضافة إلى أنه حق لهم - وإلا لأصبح العمل سخرة - فإنه الأسلوب الوحيد أمامهم وليس هناك بديل آخر حتى لو كرهوا.. وإذا تسبب هذا في تعطيل مصالح الناس فالبادئ أظلم. والبادي هم الرأسماليون الذين رفضوا مطلب العدالة.

والعمال بعد، هم أبطال العمل وجنوده وجيشه الجرار الذي يعمل في الظلام ويسير عجلة الإنتاج، ويسر للناس الغذاء والكساء والسكن والانتقال وكل ما في الحياة، فهم جديرون بالشكر والعرفان..

ولكن قادة الدعوات الإسلامية لما جهلوا هذا فإنهم لم يتصورا طريقاً لتحسين الحال أو نيل المطالب إلا الطريق الفردي، فعلى كل واحد أن يعمل ما يستطيع وسينال ما تسمح به قواه وملكاته وهو أسلوب ساذج فردي لا يمكن أن ينهض بالملايين من العمال فضلاً عن أنه سباق القوة الذي يسقط فيه الضعف والضعيف هو العمال. وفي المنطلق الرأسمالي فإن الضعيف لا يستحق رحمة ولكن في المنطق الإسلامي فإن الضعيف أمير الركب. وكان الأسلوب الوحيد للنهضة بالعمال ككل هو العمل الجماعي الذي تجمعت فيه كل فضائل الإسلام من عمل تقوم به الجماعة وتستهدف به العدالة وتستلزم لذلك سبلاً دفاعية وليست هجومية وتتم تسويته بمفاوضة جماعية على المائدة، وليست بحرب في ميدان قتال، فهي طريقة حضارية وإسلامية لأنها نمط من الشورى.

وفي رسالتنا " الحركة النقابية حركة إنسانية " أثبتنا أن الحركة النقابية تأتي بعد الأديان مباشرة، وقبل الديمقراطية والاشتراكية وإنما حققت للعمال ما طمحت إليه وعجزت عنه الاشتراكية والديمقراطية على سواء فهي حركة إنسانية مجيدة.

وقد كانت هذه الحركة هي أول ما لمس مثاليات الشباب فنياً، ولهذا أسهمنا فيها بعمل استغرق وقتاً طويلاً واكتسب طابع الإضافة المنشئة، بما في ذلك تكوين " الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل " في جنيف سنة ١٩٨١. إن دعوة الأحياء الإسلامي تقدر الحركة العمالية والنقابية، وتؤمن بدورها الإنساني العظيم وتشجعها بما ينفي عنها ما يتسلل إليها من خبث، ولكنها لا تلزم الحركة النقابية الإيمان بها. لأن الحركة النقابية تحشد العمال جميعاً على اختلاف مستوياتهم وإفهامهم - وهذه طبيعة تختلف عن طبيعة دعوة الأحياء الإسلامي التي تتطلب الإيمان الطوعي من الأفراد بها فرداً فرداً.

## ١٦ - الديمقراطية:

كان خيار أوروبا السياسي دائماً هو ما بين الديكتاتورية والديمقراطية، ولا جدال أنه في مثل هذه الحالة فإن الديمقراطية أفضل من الديكتاتورية. ويتعين الأخذ بها. ولكن الحقيقة أن خيار البشرية لم يحصر ما بين الديكتاتورية والديمقراطية. لأن هناك نمطاً ثالثاً من الحكم لم تستطع أوروبا بلوغه ذلك هو الحكم بالقانون، ولم تستطع أوروبا بلوغه لأن القانون الذي يصلح أن يكون حكماً لا بد وأن يكون موضوعياً يأخذ صفه



القاضي المحايد. وقد عجزت أوروبا عن أن تبذل مثل هذا القانون وتجربتها في الأنماط الثلاثة الأشهر في القوانين، أعني القانون الروماني، وقانون نابليون، والقانون السوفيتي يثبت أن القانون في هذه التجارب الثلاثة لم يكن قاضيًا نزيهًا ولكن محاميًا عن مصلحة بعينها. كانت هي روما في العصر الروماني، والبرجوازية في قانون نابليون والحزب في القانون السوفيتي، ولهذا لم تستطع أوروبا أن تنهض بالقانون من مستوى المحامي إلى مستوى القاضي. وبالتالي أن يكون حكمًا بين الناس.

على أن هذه قضية أخرى، وإنما أشرنا إليها لكي يعرف الناس أن الديمقراطية ليست وثناً يعبد ولا هي ثوباً all size يلبس. وإن الأمر أعقد من ذلك وهناك عوامل عديدة يجب أن تلاحظ في قضية الديمقراطية منها.

أ- أن الديمقراطية سواء نشأت في أثينا على مستوى دولة المدينة، أو في بريطانيا بحكم ظروفها السياسية الخاصة ثم انتقلت مع المهاجرين البريطانيين إلى الولايات المتحدة، وسواء تأثرت بها الدول الإسكندنافية التي يجد إلهامها في بريطانيا. نقول إن الديمقراطية لم تثبت قدمها إلا في هذه الدول. بحكم ظروفها. أما في قضية العالم فلم تنجح الديمقراطية في تحقيق الاستقرار، والسلام في المجتمع..

ب- أن هناك فرقاً بين الحرية والديمقراطية. ويغلب أن تبطش الديمقراطية بالحرية حتى ضد حرية الفكر، بحيث تحكم المحكمة الأثينية على سقراط بالموت، وتحكم المحاكم الديمقراطية الأخرى في بريطانيا والولايات المتحدة على حرية الفكر التي نجد مثلاً صارخاً لها في محاكمة المفكر الفرنسي المسلم جارودي بمقتضى قانون يحرم على أي كاتب أن يمس قضية " المحرقة اليهودية ".

والديمقراطية عملياً - هي حكم الأغلبية التي لا تجد مانعاً من كبت الأقليات، وتاريخها حافل بذلك. فالديمقراطية لا تغني الحرية، بل يمكن أن تكون - وكانت بالفعل مراراً وتكراراً ضد الحرية.

ج- أن الديمقراطية تقوم على نظام الأحزاب، والانتخاب على أساس الدوائر الجغرافية، وقد أظهرت التجربة قصور هذين النظامين، وتعرضهما للاختراق من قبل ذوي المصالح أو " اللوبي " التي تحكم نتيجة الانتخابات. ورأينا صورة مدوية له في قدرة اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة على تسخير مصالح هذه الدولة لخدمة السياسات الإسرائيلية ضد المصالح الأمريكية نفسها، وبصفة عامة فيكاد يحكم النظام الانتخابي قانون جريشام عن أن " العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة " فالمشرح المنافق يطرد المرشح الأمين، ولا بد من التوصل إلى بديل عن نظام الأحزاب والانتخاب كما هما مطبقان [ ولدينا هذا البديل ].

د- أن الديمقراطية في الوقت الذي قد تكبح حرية الفكر فإنها تفسح المجال للرأسمالية ورجال الأعمال لاستثمار أموالهم بما يحقق لهم الربح وتحول دون تدخل الدولة لتطبيق العدالة أو تحقيق التوازن بحجة أن أي تدخل من هذا باليات السوق. وكأن الشعوب قد خلقت لخدمة آليات السوق ولم تخلق آليات السوق لتكون في خدمة الشعوب، ونتيجة لهذا القصور ظهرت الدعوات الاشتراكية والفاشية التي ضلت هي الأخرى الطريق لأنها اشترت العدالة وضحت بالحرية..

هذه بعض الملاحظات التي يمكن لدعوة الإحياء الإسلامي أن تقدمها للذين يعبدون الديمقراطية ويدعون لتطبيقها على كل دول العالم كما لو كانت شفاء من كل داء، وأن دعوة الإحياء الإسلامي لديها البديل الأفضل الذي عبر عنه في بعض رسائلها مثل " حكم القانون رؤية للحكم بالقرآن " أو البرنامج الإسلامي " إلخ.. وحتى يتم هذا فإن الديمقراطية على عجزها وبجرها حسناتها وسوءاتها أفضل من غيرها، ويتعين الأخذ به في المرحلة الانتقالية.

## ١٧ - العدل:

في مناسبات عديدة أثبتنا أن العدل هو " بصمة " الإسلام إذا كان للأديان بصمة. ومع هذا فإنه لم يكن مهملاً كما هو في الدول الإسلامية، وفي فكر الفقهاء أيضاً، ولا بد من إصلاح هذا بجعل العدل هو الفيصل في العلاقات جميعاً ما بين الحاكم والمحكوم.. الرأسمالي والعامل، الرجل والمرأة، وما تمتثله هذه العلاقات، أي محالات السياسة والاقتصاد والاجتماع، وأي حكم يجافي العدالة لا بد أن يرفض.. ويتعين أن يحل محله نظام يحقق العدل للجماهير العاملة، والعدل هنا هو أن تكون الأجور وظروف العمل إلخ.. كافية ليحيا العامل حياة كريمة يتمتع فيها بحظ من مباحج الحياة، ويأمن فيها من المرض والبطالة إلخ.. إن هذا المطلب هو من صميم الإسلام، وهو تطبيق لأول الأوليات في الشريعة. إن قضية الفلاحين وقضية العمال والمستعبدين في الأرض هي قضية إسلامية بالدرجة الأولى فلإنصاف هؤلاء أنزل الله تعالى الأديان. وميزها عن النظم الطاغية والمستغلة. ولا بد للفكر الإسلامي أن ينتبه لهذه النقطة وأن يخلص من سيطرة الفكر الفردي البرجوازي عليه.

ودعوة الأحياء تستهدف العدل لا في المجال الاقتصادي فحسب ولكن في المجال السياسي أيضاً بحيث تحسم شأفة الاستبداد أو التحكم.

## ١٨ - العولمة:

أصبحت العولمة أكبر ظواهر الفترة المعاصرة، وقد دبج أنصارها عقود المديح فيها ورأوا أنها هي التي ستقذف العالم من أوجاعه. وأنها بمعاييرها تؤدي إلى تطبيق حقوق الإنسان. الديمقراطية وإشاعة الحريات إلخ.. والحقيقة أن العولمة هي آخر " صيحة " أو مدى وصل إليه النظام الرأسمالي. وقد كان الفصل الأول لتغلغله هو الغزو العسكري الذي يسلم موارد المستعمرات للرأسماليين الأوروبيين. ثم تضمن الفصل الثاني نوعاً من الشراكة في إقامة المصانع والمؤسسات التجارية ما بين الاقتصاديين في المستعمرات والاقتصاديين في الدولة الأوروبية والفصل الثالث والمعاصر هو العولمة التي جندت ثلاث فيالق لا يمكن لأي دولة أن تقف أمامها. والفيلق الأول: اختراق البورصات بعد أن أصبح الاقتصاد " مالياً " يقوم على العملات والبورصات والانتقال المفتوح لرؤوس الأموال إما بصفة قروض أو استثمار أو أسهم وسندات، وبهذه الطريقة يصبح الاقتصاد في يد أصحاب رؤوس الأموال الأوروبية/ الأمريكية ويمكن لهم أن يكرروا ما فعلوه مع " النمرور الآسيوية " في ماليزيا بمختلف الطرق والوسائل التي تسمح بها نظم البورصات.

والفيلق الثاني: غزو السلع والمنتجات لأسواق العالم بعد أن توصلت اتفاقية الجات إلى أن تكون الأسواق مفتوحة، ومنعت الدول من فرض رسوم جمركية على الواردات إليها. فأصبحت الأسواق مفتوحة. فأصبحت الأسواق القومية فريسة سهلة أمام السلع الأجنبية لأنها لا يمكن أن تصل إلى مستوى جودتها. فضلاً عن أن هناك من الألاعيب ما يمكن لأصحابها التوصل إلى قهر السلعة الوطنية، كأسلوب الأغرار، وذلك بتخفيض السلعة الأجنبية إلى ما دون التكلفة، بحيث يفلس منتج السلع القومية وبعد أن يحدث هذا ترفع الشركات الأجنبية من سلعتها بعد أن انفردت بالسوق.. وأمثال هذه الألاعيب عديدة..

والفيلق الثالث: الإعلام طريق الأقمار الصناعية والقنوات التليفزيونية التي تقوم بالغزو الفكري والنفسي لفلسفة العولمة بحيث يمكن في النهاية أن يأكل العالم كله الهامبورجر ويشرب الكوكاكولا ويلبس " الجينز " ويشاهد الأفلام الأمريكية.

ولا جدال في قوة هذه الهجمة الأخيرة من هجمات الرأسمالية، ولكن المعركة قد لا تكون بالسهولة التي يتصورها أنصار العولمة. فتوحيد العالم كله أمل عجزت عنه كل النظم، بل والأديان أيضاً.. والإسلام مثلاً يقر التعددية الدينية ولا يتصور أن تكون البشرية كلها " أمة واحدة " وستقف أمام طوفان العولمة، قوى الدين، واللغة، والتراث والخصائص الخاصة بحيث لا يمكن الاستحواز على الإنسان الأفريقي أو الآسيوي - وبوجه خاص الإنسان المسلم الذي يقدم له الإسلام أكبر حصانة من الإذابة. كما لن تقف الحكومات مسلوقة الإرادة طويلاً ولا بد أن ضغط شعوبها سيحملها على العمل. وقد شاهدت " سياتل " في الولايات المتحدة ودافوس في سويسرا مظاهرات شعبية حاشدة ضمت عشرات الألوف التي اجتمعت احتجاجاً على السياسة التجارية التي تنهجها الدول الكبرى والشركات العملاق متعددة الجنسيات ويمكن لهذا الاحتجاج أن يأخذ شكلاً أكثر تنظيمياً ومنهجية.

وكان من الممكن لولا الطمع الشعبي للرأسماليين، والتحالف المدنس ما بين رجال المال بأموالهم ورجال الحكم بسلاحهم.. أن تأخذ العولمة طابعاً آخر يمثل الحوار بين الحضارات والتعارف بين الشعوب والتلاقح بين الثقافات والقضاء على العنصرية، وهي كلها أهداف نبيلة ومفيدة للبشرية جمعاء..

وهذا هو ما تدعو إليه دعوة الإحياء الإسلامي وما أمر به الله تعالى عندما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۖ ﴾.

## ١٩ - الفساد:

عم الفساد وطم، وظهر في البر والبحر، في الدول المختلفة، في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وأمريكا. بحيث أصبح " ظاهر " وليس " حدثاً " وشمل السياسيين في صورة تقاضي معونات للأحزاب وتمويل للمعارك الانتخابية من قبل أصحاب أعمال أو فئات مستفيدة. والتستر وراء الحصانة البرلمانية لأداء صفقات مخالفة للقوانين وأدت الفضائح إلى استقالة عدد من كبار السياسيين في ألمانيا، وإنجلترا، وغيرهما.. كم تورط عدد كبير من المواطنين في تقاضي عمولات أو رشاوى للحصول على موافقات أو تسهيلات لإجراء صفقات بحيث اعتبرت العمولات والرشاوى في بعض الدول كجزء لا يتجزأ من تكاليف الإنتاج!

وظهر الفساد في الدوائر المالية، وبالذات البنوك ووصل الفساد في بعض الدول المختلفة أن استحوذ كبار حكامها لأنفسهم على المعونات والقروض التي تقدم للدولة، أو تحويل مبالغ جسيمة من المالية العامة لسحاباتهم في البنوك الخارجية.

وظهر الفساد في الدوائر المالية ما بين المقرضين ومديري البنك الذي قدموا تسهيلات ائتمانية دون ضمانات ولكن لقاء عمولات، وأخذ المقرضون الأموال وفرّوا بها!

وظهر الفساد في المجال الصناعي والزراعي بما يمارسه أصحابها من وسائل التحايل بأنواعه لاكتساب الرواج ولم ينج من ذلك حتى صناعة الأدوية..

وظهر الفساد لدى المهنيين من محامين، ومهندسين ومحاسبين وخبراء إلخ..

باختصار لم ينج قطاع من قطاعات المجتمع من وباء الفساد.. كما لم تفلح النظم الاشتراكية إلا في التستر على صور الفساد التي لم تعرف إلا بعد سقوط هذه النظم.

ويدل شيوع هذه الظاهرة وانتشارها على مستوى العالم أن القوانين والنظم واللوائح رغم دقتها وصرامته لم تستطع أن تقف أمام ذكاء المحتالين الذي يتوصلون إلى اختراقها وتجاوزها وتحقيق أهدافهم، كما تدل على أن المستوى الأخلاقي. وفكرة الواجب ليست من القوة بحيث تكبح جماح النفس الإنسانية أو تقم مجموعات كبيرة من الناس عن الاستسلام لإغراء الثراء العاجل السريع، وإن لم ينف هذا أن الكثيرين لم ينزلقوا إلى هذه الممارسات.

كما تدل هذه الحقائق على أن أطراح المجتمع الأوروبي للدين، والصورة المشوهة للدين التي يعرضها الفقه التقليدي قد أسهمت في توهين المقوم الديني وإضعاف أثره في كبح جماح النفس البشرية ومقاومة الضعف أمام أغراء الثراء السريع.. رغم أن الدين هو الأمل الوحيد في القضاء على ظاهرة الفساد. فبقدر ما يتعمق الوعي الديني في النفس بقدر ما تكون قدرة الإنسان على مقاومة الإغراء، وليس هناك من قوة أخرى تعدل الدين في هذا المجال فإيمان المؤمن بأن الله يرى، وعمق معنى الحرام والحلال وما وصمت به الأديان هذه الصور من الفساد من أنها استسلام للشيطان وبئس المصير.. هذه المؤثرات الأدبية، النفسية العميقة هي وحدها التي يمكن أن تحول دون استشراف الفساد، دون أن ينفي هذا ضرورة العمل على إغلاق المنافذ إليه.

## ٢٠ - النخبة:

من الظواهر البارزة في معظم المجتمعات الإسلامية وجود نخبة تختلف في مذاهبها واتجاهاتها عما تذهب إليه شعوبها وجماهيرها، فالشعوب في واد، وهذه النخبة في واد آخر ومثل هذا الشذوذ لا يوجد في المجتمعات الأخرى، وهذه الظاهرة الشاذة تعود إلى أسباب عديدة أبرزها أن الثقافة التي أمت بها هذه النخبة ثقافة أوروبية خالصة، لا تمت بصلة إلى الإسلام، أو إلى ثقافة بلادها، وقد تلقى الكثير من البارزين من هذه النخبة دراساتهم في جامعات أوروبية أو أمريكية أو تبشيرية (كالجامعة الأمريكية في مصر وبيروت وجامعة فيكتوريا بالإسكندرية) ومن هنا فإن عقل هذه النخبة وتفكيرها بعيد كل البعد عن فكر الجماهير الذي يدور حول محور رئيسي هو الإسلام باعتباره الأصل في اللغة، والتشريع والآداب إلخ..

أما الذين لم يقسم لهم مثل هذه الدراسات الأوروبية والأمريكية من النخبة فإن النظم الحاكمة عملت لكسب ولائهم، وهذا أمر يسير عليها لأن في يدها المال والسياسة والوظائف والصحافة إلخ.. وهي تستطيع أن توظف هذه النخبة في الصحف، وأجهزة الإعلان والجماعات والوزارات والمصالح على اختلافها، كما أنها أيضاً تعمل لاحتوائه في حزبها، وهو الحزب الحاكم، وبهذه الطريقة تكفل لهم النجاح في انتخابات ٩٩,٩% وتكسبهم المنزلة الأدبية والسياسية والمادية أيضاً.. بل حتى النخبة الإسلامية التي تدور دراساتهما كلها حول الإسلام فإن السلطة لا تعجز عن استحقاقها بحيث يكونون بعد فترة "بطانة السلطان" التي تصدر الفتاوى بشرعية أحكام وقرارات السلطة..

وهذا كله يكاد يكون من الحقائق الدارجة الملموسة التي يعلمها كل الناس بحيث لا ترى حاجة لضرب أمثلة..

نتيجة لهذا فإن الصحافة، والإعلام، ومؤسسات الثقافة الأوروبية أصبحت أجهزة لتدعيم سياسة النظام الحاكم لأن النخبة أصبحت جزءاً منه، فهي في دفاعها عن النظام إنما تدافع في الحقيقة عن نفسها وعن مصالحها المكتسبة، كما أنها لا بد وأن تدفع أي نقد يوجه للسلطات لأنه يمسه بعد أن ورطتها النظم الحاكمة في سياساتها وأشركتها في قاذوراتها وجعلتها تتستر، بل تدافع عنها.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد كان لدى هذه النخبة عامل آخر يجعلهم يعزفون عن الاتجاه الإسلامي. ذلك أن هذا الاتجاه إنما تمثله مؤسسة دينية متفوقة، أو هيئات إسلامية بعضهم شاردة ومهووسة لا يأتي منها إلا أنواع العذاب والوعيد، والتنديد بالفنون والآداب والانغلاق، والجهالة والتعصب وضيق الأفق.. ومن ثم فقد عزفت النخبة من الالتحاق بهذا الركب العقيم. ورأت في دعوة للتخلف.

على أن النخبة لا تعذر تماماً في الموقف الذي اتخذته لأنها كانت تستطيع أن تتبين زيف وانحراف هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم دعاة وكان بإمكان هذه النخبة. أن تتوصل إلى ما في الإسلام من روعه وأصالته وأن تعلم أن موقفها السلبي فرار من أعظم قرار فكري يتعين على المثقف اتخاذه وأنها بذلك تفسح المجال لهؤلاء الدعاة.. ونترك لهم الميدان يصلون فيه دون أن يجدوا معقلاً أو مصححاً.

فالنخبة في جميع الحالات وباستثناءات قليلة مدانة، مدانة في استسلامها للسلطات وجعلها من نفسها "صوت سيده" الذي يردد دعاواه، وكان من حق الثقافة عليها أن تسمو فوق هذا المستوى، ثم هي مدانة بسلبيتها تجاه الدعوات المنحرفة أو الضالة أو المختلفة.

والإسلام يعد مفتوح، والتفكير فيه حر طليق ولا يستطيع أحد احتكاره أو منع الآخرين منه، وليس هناك "كنيسة" إسلامية تملك التحليل والتحرير، والقرآن واضح وصريح ولو تدبرته النخبة - والتدبير فيه واجب عليها باعتبارها نخبة مثقفة، وباعتبارها نخبة مسلمة لتفتحت أمامها آفاق روعة الإسلام وأصالته المبادئ التي يقررها ولوجدت أن كل ما توصلت إليه دراستها هزيل أمام ما يمكن أن تنتهي إليه بتدبر القرآن..

وعلى كل حال فإن دعوة الإحياء الإسلامي بانفتاحها ورفضها الدعاوى التراثية والأحكام الفقهية التي لا تستند على أصل صريح من القرآن أو تتجاوز مع القرآن وبعد أن أثبتت أن الأحكام التي وضعها القرآن منذ خمسة عشر قرناً تفوق ما وضعته الأمم المتحدة من موثيق واتفاقيات، نقول إن دعوة الإحياء لم تدع للنخبة

عذراً لأنها ليست فحسب قدمت ما يتفق مع مستوياتهم الثقافية، بل إنها تفسح المجال لمشاركتهم وتقديمهم إضافتهم.

## ٢١ - التنمية:

قلنا في ميثاق دعوة الإحياء الإسلامية أن التنمية قضية حضارية بالدرجة الأولى، وما دامت هي حضارية فهي في النهاية إسلامية لأن الإسلام هو جماع حضارة العرب والمسلمين. وأنها لن تنجح إلا إذا اعتبرت الصورة العصرية " للجهاد الذي تعباً الأمة كلها للانتصار في هذه المعركة التي يكون الإيمان فيها هو القوة الدافعة التي تحول المشروعات والخطط إلى منجزات عملية.. وأي قوة أخرى - بما في ذلك المال والتقنية - لا يمكن أن تماثله، فضلاً عن أن المال والتقنية ليسا ميسرين، ولو تيسرا لما كانت الحاجة إلى التنمية ملحة، فإنما تهدف التنمية - فيما تهدف - إلى تيسيرها.

وقلنا إن الطريقة التي تضعها الرأسمالية وصندوق النقد الدولي والمعونات والقروض إلخ.. لا تثمر تنمية حقيقية، وإذا أثمرت تنمية فللرأسمالية والدول المانحة المعونة والمقدمة للقروض. وهذه الخطط هي مصيدة لإيقاع الدول في شبكة الديون والفوائد والتبعية.

فلا بد للتنمية الناجحة أن تستلهم طرقاً غير تقليدية، تأخذ من الإسلام عنصر " الإيمان " وتأخذ من عمر بن الخطاب كالحاكم الذي يقود التنمية مبدأ " الأسوة " وتدرس تجربة غاندي واليابان والصين وحتى لينين..  
وقلنا إن هذه التنمية لا بد أن تستهدف إثراء الشعب كله وليس القلة المميزة ولا بد أن تشترك الجماهير مشاركة فعالة من وضع الخطة، حتى تطبيقها وتقييمها ومتابعتها. ولا بد أن تبدأ من محطة الكفاية التي لا تتحقق إلا بما تجزئه التنمية من أهداف وترفع مستوى المعيشة إلى مستوى الكفاية.  
وأي تنمية يضع خطوطها صندوق النقد الدولي وتقوم على قروض ويشرف عليها خبراء وموظفون ستؤدي إلى مزيد من التخلف والتخبط في إيسار التبعية. وستجعل الفقراء أشد فقراً والأغنياء أكثر غني.

## ٢٢ - النفاق الاجتماعي:

أصبح النفاق الاجتماعي هو القاعدة التي تحكم العلاقات الاجتماعية على مستوى الأسرة، وعلى مستوى الدولة، وهناك استثناءات بالطبع، ولكنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة لا ينفيها، والحكم هو للقاعدة، ولو قارنا المجتمع العربي/ الإسلامي في هذه القضية بالمجتمع الأوروبي/ الأمريكي لوجدنا أن النفاق استثناء.. أما القاعدة فهي الصراحة والصدق والمجابهة.

وهذه الحقيقة هي من أكبر أسباب القلق والتخبط الذي يعانيه المجتمع المصري، كما أنها من أكبر أسباب تخلف الأمم، لأن الأمم إنما تنهض بالشجاعة، والإقدام والقيام بالمسئوليات والالتزامات واستخدام العقل وتطبيق أحكامه.

ويبدأ الفصل الأول من هذه المأساة مع الأسرة. فالأم العربية/ الإسلامية لا تفرق بين الحب والدلال، والأول حسن والثاني سيئ، ومن حق الطفل على أمه أن تحبه وتشعره بهذا الحب كما أن من واجب الأم على الطفل أن تعلمه أن هناك أصولاً وقواعد لا بد أن يتقبلها ويلتزمها في الأكل، والشرب، واللبس والنوم إلخ..

لأن صحته ومصالحته تتطلب ذلك، ويمكن للأُم أن تحمل الطفل على الالتزام بها برفض الاستسلام لبكائه وصراخه. إن الأم الأوروبية بعد أن تعلم في هدوء، وبصبر طفله هذه القواعد في الأكل واللبس والنوم فإنها لا تأبه لبكائه عند إلزامه بها وشيئاً فشيئاً يفهم الطفل أن عليه أن ينصاع ويلتزم ويوقف البكاء أما الأم العربية/ المسلمة فما أن يبكي طفلها حتى تهرع إليه وتقبل التخلي عن هذه القواعد (إذا افترضنا إنها علمتها له) وتكون النتيجة أن يصر الطفل على مطالبه حتى يستجاب له، وفي مستقبل حياته يتصور أن من حقه أن يستجيب له الآخرون.

ولهذا التدليل أثر لا يقل خطورة، ذلك أن الأم تخشى على طفلها من أقل المخاطر، وتحاول أن تجنبه القيام بالكثير من الواجبات أو التصرف مع مشكلاته، وبهذا تجرده من روح الإقدام والمخاطرة وتحمل المسؤولية وتربيته تربية إنكالية يعتمد فيها على الآخرين ويفر من الالتزامات والواجبات. ومقابل تدليل الأم يقف الأب صارماً، ولكن هذه الصرامة ليست في إلزام الطفل بالقواعد، ولكن لكسب طاعة الطفل.

ويتمزق الطفل ما بين تدليل الأم، وصرامة الأب وفي الوقت نفسه فإن الأم والأب قلما يتحدثان معه حديثاً مفيداً أو يردان على أسئلته، أو يزودانه بمعرفة.

فإذا دخل المدرسة وجد نظاماً للتلقين وحشو الفكر والحفظ ووجد معلماً مهموماً بائساً ينوء بمطالب أسرته التي لا يفي بها مرتبه - كما قد يجد - كما حدث في الفترات الأخيرة - في الدروس الخصوصية ما يفك أزمته، ويحقق له اليسر والرخاء، وفي جميع الحالات لا يجد الطفل في المادة التعليمية ما يغذي فكره ولا يجد في المدرس الأسوة الحسنة التي يتبعها.

وفي مرحلة المراهقة الخطرة لا يجد من يرشده، لأن الحديث عن هذا الجانب " عيب " ويترك ليتخبط في جهالته.

وإذا قدر له أن يتم دراسته في الجامعة فسيجد أن الجامعة لا تفضل المدرسة الابتدائية أو الثانوية وسيجد مدرجات تزدهم بمئات الطلبة وأستاذ يلقي محاضراته، ويمضي لطيته، والعملية التعليمية كلها في ورق وسيجد الفساد في المدرسة وقد تضخم في الجامعة فإذا نال شهادته. فسيجد البطالة وسيكون عليه أن ينتظر سنوات طوال، وأن يجري وراء " الوساطة " حتى يصل في النهاية إلى وظيفة. خلال هذا " المشوار " الطويل لا يجد توجيهاً حكيماً أو قيماً رشيدة أو أسوة حسنة. أو تدريباً على أعمال العقل ومجابهة المشكلات.

وسيجد أن المناخ الذي يحكم المجتمع هو مناخ العشوائية والكبت والقيود والسدود، والمحرمات وتركيز السلطات والزيوف والإدعاء وتكون النهاية هي النفاق الاجتماعي، فهو الطريقة الوحيدة للوصول، فليس هو مؤهلاً بحكم تربيته الإنكالية على الكفاح والنضال، ولا المناخ نفسه يسمح بهذا الكفاح، وعليه أن يسير مع التيار وينافق، ويمدح ويصفق ويهتف حتى يفتح ثغرة في السور المسدود ينفذ منها إلى الوظيفة والمنصب، وعليه أن يستمر في النفاق والمداينة والمداجاة حتى يبقى ويتقدم.

يكتب الصحفي وهو يعلم أن ما يكتبه زيف وباطل ويخطب الخطيب وهو يعلم أن ما يقوله كذب وإدعاء لأن الصحف لا تنتشر والحديث لا يذاع إلا بهذه الطريقة " ويتهرب الموظف من مسؤولياته أو يحملها على آخر لأنه لم يتعلم حمل المسؤولية وأمانة الالتزام.

الصراحة، والعقلانية والشجاعة لا توجد في عالم تتعدم فيه الحرية ويسيطر الاستبداد والطغيان وإنما يوجد الانتهازية والوصولية والنفاق..

إن عملاً بحجم وطبيعة الزلزال أو البركان هو وحده الذي يمكن أن يخلصنا من هذه الآفة.. التي تسمم المجتمع والعلاقات، وتؤخر التقدم والنهوض، ودعوة الإحياء الإسلامي هي أول صيحة.. للخلاص..

## ٢٣ - تلاقي الأديان:

من الظواهر التي لفتت الانتباه وأثارت الجدل تلك المحاولات التي تولتها بعض الهيئات في المجتمع الأوروبي للتقريب ما بين الأديان بعضها بعضاً وأطلق عليها حوار الأديان. ومعظم الذين قاموا بهذه المحاولات من المفكرين ورجال المسيحية الأوروبية - كاثوليكية وبروتستنتية.

ونحن نؤمن أن الدين واحد في الأصل لأن جوهره هو وجود إله يمثل الحكمة والغائية والمثل العليا، خلق هذا الكون وهو يثيب المحسن ويعاقب المسيء في محكمة تقام في الحياة الآخرة تستكمل محاكم الحياة الدنيا بحيث لا يحرم من ثواب العدالة محسن ولا يفلت من عقوبتها مجرم أو مسيء..

بالإضافة، فإن الأديان الكتابية الثلاثة لها أب واحد، هو إبراهيم، وابنان هما إسحاق وإسماعيل، ومن إسحاق ظهر موسى وعيسى أي اليهودية والمسيحية ومن إسماعيل ظهر محمد أي الإسلام فهذه الأديان عملياً - وليس مجازياً - أسرة واحدة والاختلاف ما بينها هو اختلاف في تفاصيل العقيدة والشريعة.

لهذا لا يجد المسلمون في التقارب ما بين الأديان حرجاً أو حساسية. فقد أقر القرآن الكريم التعددية وأمر أن تكون علاقة المسلمين بالآخرين مبنية على القسط والبر مع الذين ﴿ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ﴾.

ولما كان الاختلاف إنما هو في تفاصيل العقيدة أو الشريعة، فيفترض في أي تلاقٍ للأديان أن يبتعد عن هذه النقطة ولا يجوز أن يخطر في بال المسيحي أن يستهدف من هذا التقارب كسب المسلمين، كما أنه لا يجوز للمسلمين أن يستهدفوا منه هداية المسيحيين فلو وجدت أي إثارة من مثل هذه الفكرة فستتحول الساحة إلى مبارزة، وليس إلى معانقة. وبعد هذا كله فالتعددية مطلوبة. والاختلاف نفسه ليس سيئاً دائماً. وقد أمر الرسول أن يقول: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ و ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾.

لهذا يجب أن تتركز موضوعات التلاقي حول روح الأديان والأهداف التي قامت لها والتي لا خلاف عليها بين الأديان جميعاً.. فمثلاً.

أ - كل الأديان تهدف لتحقيق الكرامة الإنسانية ومقاومة ما يمس ومن باب أولى - ما يهدر هذه الكرامة

- ومن أبرز ذلك الصور المقيتة للتعذيب التي شاعت في ممارسات أجهزة الأمن في الدول

المختلفة.



ب- كل الأديان تدعو لصيانة الحياة والحفاظ عليها، وترى سفك الدماء أسوأ الجرائم.. وفي الحروب تجرى الدماء أنهاراً ويقتل مئات الألوف، بل والملايين فضلاً عما تتركه من مشوهين - ومعوقين دون أن يكون لهذه الحروب سبب نبيل يبرر التضحية، وإنما هي حروب سياسية يأمر بها الحكام لما ورثوه من مقدسات مدعاة أو يدفع إليها طمع الرأسماليين والتجار.. ومن ثم فالذين يموتون في هذه الحروب يكونون شهداء الطموح السياسي والتوسع الرأسمالي.

فمقاومة الحروب وتسوية الخلافات بالتفاوض والتحكيم يجب أن يكون من أهداف رجال الدين في العالم أجمع، وكان يجب أن يكونوا هم - وليس الرئيس ولسن عام ١٩١٩ - الذين يضعون أسس عصابة الأمم، ومحكمة العدل الدولية. فلئن فاتهم هذا فإن الساحة مفتوحة.. والحاجة متزايدة.

ج- ولا يمكن مقاومة الحروب إلا بمقاومة صناعة التسليح، وصناعة التسليح وشقيقتها التي لا تقل عنها شراً وإساءة - صناعة المخدرات والرقي الأبيض والجريمة المنظمة. هما أكبر المؤسسات في العصر الحديث، ويجب على رجال الدين أن يدرسوا ويقدموا طرق التحول من صناعات السلاح والتدمير إلى صناعات السلام والتعمير. والطرق والأسباب التي تؤدي لازدهار المخدرات ومختلف صور الفساد ووضع الحلول لها..

د- ارتبطت الأديان من قيامها برعاية الفئات المعوقة أو المريضة أو المشوهة إلخ.. وقد تضخمت هذه الفئات بما تحوله إليها الحروب من معوقين ومشوهين، ولا تزال هذه الفئات في عدد كبير من الدول محرومين من الرعاية وسد هذا النقص مما يدخل في صميم الفكر الديني وهو يصل الدين المعاصر بجذوره القديمة..

\*\*\*

وأتصور أن الحاجة إلى " جبهة " ثالثة تقف ما بين جبهتي رجال السياسة ورجال المال اللذين يستبدان بالأمر.. أصبحت ملحة حتى يمكن سد تلك الفجوة اللا إنسانية الفاعرة فإها في المجتمع الحديث. بحيث توجد مؤسسة دولية لرجال الدين - يجتمع ممثلوها كل عام أو كل عامين ويتصدون للمهام التي ضربنا المثل لها آنفاً وتصدر اتفاقيات دولية كاتفاقيات منظمة الأمم المتحدة. وتكون الرأسة فيها دورية ولكل فريق حقوق متساوية مع الآخرين..

أما المحاولات الفردية التي لا تتسم بشمول أو دوام أو منهجية، فإنها وإن دلت على نبل أصحابها، فإنها أيضاً تدل على أن الواجب الحقيقي لرجال الدين في العصر الحديث لم يتغلغل في " المؤسسة الدينية " سواء كانت كنائس أو مساجد - بالدرجة الواجبة، وأن من المفروض أن تبذل الجهود للوصول إلى هذه الدرجة.

## ٢٤ - الثورية:

كان للثورة الفرنسية وما اصطحبت به من مذابح أثر عميق ليس فحسب على الفكر السياسي الأوروبي ولكن أيضاً على الممارسات الثورية.. فأعتبر المفكرون أن من طبيعة الثروات أن تكون دموية وأن ترتكب فيها جرائم عديدة وأن هذه الانحرافات " شرعية ثورية " ثم جاء لينين وطبق مبدأ " اغتصاب المغتصبين " و

" لا حرية لأعداء الشعب " وبهذا أمكن تسوية الجرائم المنكرة التي وقع فيها الاتحاد السوفيتي بدءاً من عهد لينين حتى الأيام الأخيرة له ونقل الاتحاد السوفيتي تلك السبة إلى كل التجارب الاشتراكية التي قننت الغصب والقتل والتعذيب وكبت الحريات واعتبرته حقاً " للثورة " وممارسة مشروعيتها منها.

وحدثت النظم الفاشية والنازية حذو النظم الاشتراكية بحيث تغلغت ونمت في النفسية الأوروبية فكرة العدوان والاجترار والجريمة على حساب الشرعية والقانون.

وليس هناك ما هو أكثر إيغالاً في الكذب والزيف والادعاء من فكرة " الشرعية الثورية " ولم تحفظ النظم شيئاً أكثر انتكاساً عن الحضارة والمدنية مثل هذا.

وقد قال الإسلام قولته، وقدم إضافته في هذا المجال. فوصايا الرسول وأبي بكر وعمر وعلي للجيش المحاربة تستبعد بصرامة قتل غير المحاربين، وعدم اغتصاب شيء، بل شراءه بثمنه وحماية الأطفال والنساء والراهبات والكنائس. وأقر الإسلام فكرة وجود أربعة أشهر حرم لا يدور فيها قتال، واعتبرت مكة والمدينة مدناً مقدسة لا يدور فيها قتال، ولا تصاد طيورها ولا يقطع شجرها إلخ.. وعندما فتحت مكة قال الرسول أنها " أظلمت ساعة من نهار " وتعد هذه الساعة عادة مقدسة محصنة من القتال كما كانت. وما أعظم الفرق بين دخول الرسول مكة بعد فتحها حانئاً رأسه على قتب بعيره وبين " موكب النصر " الروماني الذي يسير فيه الأسرى مكبلين بالأغلال وتحتشد العربات بالغنائم ويقف " قيصر " في عربته التي تجرها خيول عديدة مزهواً كما لو كان إلهاً..

وقد كان أعظم فتح حققه الإسلام هو فتح المدينة الذي حدث بالقرآن - كما قالت عائشة - فتحت المدينة بالقرآن " وهذا الفتح العظيم لم يتم بالسيوف والرمح.. ولكن بالكلمة..

ولو أن أوروبا تعرفت على فكرة الإسلام في الأشهر الحرم - والمدن المقدسة، والتزامات الجيوش فضلاً عما وضعته الآية ٩ من سورة الحجرات عن طريق التحكيم في المنازعات المسلحة.. لكان هذا إن لم يكبح جماح هذه الممارسات الوحشية، فعلى الأقل يؤثر على الفكر السياسي الذي كاد أن يجعل من هذه الصور من المنكرات أمراً مشروعاً ومقررًا بحجة " الشرعية الثورية " " المزعومة ".

ودعوة الإحياء الإسلامي دعوة لاستتكار كل دعاوى " الشرعية الثورية " وتأكيد حرمة وكرامة النفس الإنسانية، وأنه ما من قوة يمكن أن تبيح لنفسها مجاوزة القانون العام للحقوق وأن الثورة الحققة هي - كالجهد الأعظم - بالإيمان النفسي وبالكلمة الطيبة وليس بالسيف البتر، وهي تعمل لتعريف الغرب بها.

## ٢٥ - معنى الحياة:

كثيراً ما يخطر للإنسان، عندما يخلص من دوامة مشاغله اليومية ويظفر بلحظة هدوء.. أن يتساءل ما معنى هذه الحياة.. أن يولد الإنسان في مخاض عسير يخلصه من ظلمات ضيق البطن إلى فضاء الدنيا ليتعرض لحضانة طويلة لا تبقى على الحياة فيها إلا حنان الأم حتى يخلص من الحبو على أربع إلى السير على قدمين.. ثم يبدأ طفولة تنفتح فيه ملكاته وطبائعه، ولكن المجتمع يكتبها أو يطبعها بطابعة في المدرسة

والمنزل حتى يبلغ الصبا والشباب فيكد ليهتدي إلى العمل الذي يكفل له المعيشة، وتدفع الغريزة الغالبة للزواج لكي يعيد القصة مرة أخرى وأخيراً يغادر هذه الحياة فيموت ولا يأخذ معه شيئاً.  
ما قيمة هذه الحياة.. وهل تستحق المعاناة.. فالآمال التي يكدرح الإنسان لتحقيقها ما أن تنال حتى تفقد - بعد فترة - لذتها وتصبح في حكم العادة - وهناك بعد الأمراض، والعداوات، والكوارث التي تلبد صفوفها.  
لعل الشيء الوحيد في النهاية الذي يبقى الإنسان على قيد الحياة، ويجعله يتمسك بها هي عزيزة البقاء والقوة الحيوية المستكنة في الجسم.

وقد يكون الإنسان من القلة السعيدة التي يتوفر لها المال والبنون والزوجة الصالحة والعمل الموفق ولكن مشكلة السعادة أنها ما أن تستمر حتى تصبح عادة وتفقد طرافتها والطعم الخاص بها. وقد لمس ذلك الأجهزة التي احترفت الترفيه فأخذت تجدد في الأساليب التي تقدمها في دور السينما أو المسارح أو على شاشات التليفزيون أو وكالات السفر، وتفنق الهوايات، حتى أصبح هذا كله كجلد للطبيعة البشرية للتغلب على السأم والملل، واستثارة الغرائز والمشاعر أو أي وسائل جديدة للاستمتاع.

ولكن السعادة والاستمتاع ليستا ما يملأ النفس الإنسانية، وقد تحدث القرآن عن أقوام يتمتعون، ويأكلون كما تأكل الأنعام، من أجل هذا يحس الإنسان الحديث بشيء ما ينقصه، هذا الذي أطلق عليه " الاغتراب " أو " الاكتئاب " وهو إحساس فطن إليه الفلاسفة القدامى، وأصقه ماركس بالمجتمع البرجوازي (كأن الاشتراكية بعيدة عنه) والحقيقة أنه مرض العصر، أو بمعنى أصح مرض الحضارة الأوروبية، وهو الذي يجعل الحياة رغم كأسها المترع من اللذائذ، لا تملأ تماماً نفس الإنسان الحديث، لأن نفس الإنسان وفطرته تهفو نحو ما هو أفضل من السعادة واللذة. إن هذا الاغتراب نشأ لدى الإنسان الأوروبي نتيجة لأن هذا الإنسان قطع صلته بالله تعالى، وفضل أن يقف وحيداً متحدياً يعمل ليقهر قوى الطبيعة وأكسبه هذا الموقف كل أمجاد الحضارة الأوروبية من اكتشاف واختراع ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان هذا الإنسان قد خسر نفسه، كما يقول الإنجيل - أو كما يقول القرآن: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ إن الإنسان الأوروبي يقف وسط أمجاده كما يقف البخيل بين أمواله، يحبها ولكنها لا تحبه ولا تسعده ولا تثبت الطمأنينة في نفسه أو تروي عطشه نحو المجهول.

التصوير الذي يقدمه القرآن لله تعالى وحده هو الذي يتجاوب مع الفكر الإنساني المتطلع. الطموح، الذي لا توقفه قوة، ولا تحكمه فكرة وتستبد به الطموحات والشهوات - لأن الله هو القوة الخالقة التي لا تساميتها قوة، فالأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه وهو الذي يأمر السماوات والأرض فتجيبانه أتينا طائعين، والذي يسبح له الطير في السماوات والشجر في الأرض والسماك في الماء، والذي جعل كل شيء في الكون يسبح بدءاً من الذرة الصغيرة التي لا ترى، والتي تدور فيها الالكترونات والنيوترونات حتى الكواكب والمجرات العظمى كلها تسبح، لعل هذه " السباحة " هي تسبيحها..

هذا البناء المعماري الهندسي المتكامل، والمنظم للكون الذي يسير بملايين السنوات الضوئية بدقة الثواني، ولا يخطئ أبداً وهذه الحياة التي تسري في السماء والأرض والجمال والإنسان والحيوان. ووجود عالم آخر

بعد الموت كل هذا يمثل الغائية والعقلانية والوجود، والعدالة بحيث تنتفي العبنية والعشوائية والعدم والنتيه والضياع.

وكأن هذا لا يكفي، فالقرآن يعرض لنا أشعة من نور الله.

الله رمز الجمال بديع السماوات والأرض.

الله أصل القيم الحق - الخير - العدل - الحكمة.

هنا - وهنا وحده - تحس النفس الإنسانية سواء كانت طاغية أو ضالة، وديعة أو حائرة.. بما يملأها، وما يشعرها الطمأنينة والرضا، وما يضبط سرفها وشططها ويحول دون استشرائها وطغيانها ويجعلها تحس أنها وصلت أخيراً إلى سواء السبيل وشاطئ السلام.

لا اغتراب مع الله. ولا طمأنينة مع سواه.

مع الله لا شقاء وبدون الله لا سعادة.

وهذا الشعور هو ما أحسه الصوفيون العظام وما اعتبروا أن الملوك يحسدونهم عليه.

ويكفي المؤمن أن يستعيد تلك العلاقة المستكنة في أطواء نفسه التي تربطه بالله تعالى منذ أن خلقه بيده ونفث فيه من روحه وأبدع خلقه واعتبره خليفته وسخر له الشمس والقمر والنجوم وجعل له الحياة الدنيا متاعاً وابتلاءً واستبعد المصادفة الشرود أو التطور الأعمى وأحل محلها العقل والصدق والغائية والأصول والمبادئ التي تجعل للحياة معنى في سرائها وضرائها، وتجعل المؤمن يتمسك بالحياة لأن الله تعالى أرادها له، وبدع الحياة لأن الله تعالى أعاده إليها، وهو راض في الحالين سعيد بأن تعود روحه إلى بارئها مستجيباً للنداء الإلهي ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

**إن ما تهدف إليه دعوة الإحياء الإسلامي هو تكوين رأي**

**عام يؤمن بمبادئها. وبقدر ما يكون هذا الرأي العام كبير**

**بقدر ما تكون فرص تقدم الأمة كبيرة، وبقدر ما يتم**

**بسرعة بقدر ما نختصر فترة الانتقال. فإذا آمنت بها. فاعتبر**

**نفسك صاحباً لها وادع إليها كل من تعرف حتى تشارك**

**مشاركة إيجابية في هذا الهدف النبيل. وإذا كان لك**

**ملاحظات عليها فاتصل بنا ونحن نسعد بكل إضافة.**

**جمال البنا**